﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾
.. (الحديد ١٦)

آن الأوان.. لتجديد الإيمان



د. عبد الستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير بجامعتي الأزهر وأم القرى سابقا

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ... ﴾ [الحديد: ١٦]

آن الأوان لتجديد الإيمان

بقلم

الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة

الأزهر و أم القرى (سابقًا)

١٤٢٩هـ



الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

نصيحة ورجاء من رب العالمين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا كتاب عجيب الأحوال، بدأ أصلاً بلا (عنوان)، ودخل رأسًا إلى موضوعه بلا مقدمات ولا تمهيدات، ولا فصول ولا فواصل، ثم طوته المقادير عدد سنين، فلما أذن الله تعالى ببعثه، عاد صاحبه ليضع له العنوان والتقديم، رجاء أن ينفع الله به مرة أخرى في إحياء الإيمان، وتجديد عزائم الإخوان!

فمتى، وأين؟ وكيف كُتب؟!
ولماذا كُتب؟ وماذا حدث؟
ثم لماذا طُوى..؟ ولماذا يُنْشر الآن؟!

ولا نريد بالجواب سرد الماضي الذاهب، وإنما نريد عبرةً للحاضر الملتهب، واستشرافًا للمستقبل المرتقب، بأجيالها القائمة والقادمة بإذن الله، رجاء أن نكون وإياهم من أهل البشرى الربانية العظمى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

لقد فصلت جواب هذه الأسئلة، وبيّنت ملابساتها ومناسباتها، لكن لما طالت الصفحات خشيت أن تحجب الهدف الأصلي المقصود من الكتاب، لذلك قدمته عليها، وجعلتها (رديفا) له تتم غرضه، وتوضح رموزه وأسراره، وليزداد بها المؤمنون إيمانا مع إيمانهم بإذن الله تعالى.

لقد أمر الله تعالى بالتذكره بين المؤمنين لمصلحة المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وجعل رسول الله ﷺ مدار الدين كله على (النصيحة) فقال: «الدين النصيحة -ثلاثا- قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم» رواه مسلم.

ولقد كتبت هذا امتثالا لأمر الله عز وجل، وأداء للواجب الديني الملزم، ثم وفاء بحق المؤمنين والمؤمنات في هذه (الجماعة) المسلمة، التي حملت عبء الدعوة بعد أن تخلى عنه الناس، ودفعت ثمنا باهظا من الشهداء، والتضحيات في سبيل الله تعالى، والصبر الطويل على التعذيب، والسجون، والمنافي والمعتقلات.. حتى صارت أملا لإقامة الإسلام العظيم!!

وهؤلاء أولى الناس بإخلاص النصيحة لهم، رجاء أن يجددوا الإيمان، وأن يتموا الطريق الطويل على خير ما يحب ربنا ويرضي !!

وهم كذلك أولى الناس بالاستجابة لداعي الإيمان، ونداء الرحمن: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

اللهم وفقنا وإخواننا في كل مكان إلى خير ما تحب وترضى، واجعل الإسلام منتهى رضانا؛ واحرسنا على الطريق حتى نلقاك وأنت راضٍ عنا ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].

وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

البداية

قال الفتى لشيخه:

جزاك الله عنا خيرًا- يا مولانا- فإني أذكر تلك الساعات المباركات التي قرأت لنا فيها كتاب: «الوابل الصيّب من الكلم الطيب» للإمام ابن القيم، فقد أدركتني نفحة من رحمة الله تعالى، أضاءت جوانحي بإشراق نفسي غامر، جعلني شيئًا جديدًا: حبًا لله تعالى، وإنابة له، وخشوعًا وإخباتًا لوجهه الكريم، واستقبالاً للآخرة، وإيثارًا لكل ما يثقل الميزان غدا، مع انشراح في الصدر، ونشاط في البدن جعلا للعبادة حلاوة وسهولة!!

قال الشيخ:

على رِسْلك يا بُني، أما قرأت أو سمعت الأثر الذي أورده صاحب الكتاب، عن العبد الذي يعمل العمل سرًّا لا يطلع عليه إلا الله تعالى، فيتحدث به فينتقل من (ديوان السر) إلى (ديوان العلانية) فتضيع منه الأضعاف المضاعفة من الثواب، ثم لا يزال الشيطان به حتى يتحدث بعمله للفخر والسمعة، فيقع في الرياء، ويحبط العمل والأجر والعياذ بالله تعالى؟!!

قال الفتى في عجلة وارتباك:

عفوًا يا شيخنا فقد جئتك شاكيًا باكيًا، لا متفاخرًا ولا متعاليًا، لأن هذا الإشراق لم يطل أمده، بل عدت إلى فتور النفس الذي شكوت لك منه مرارًا، وأصبحت أقاوم التدلي ولا أتابع الترقي، واكتنفتني ظلمة من داخلي، حتى صرت كأني صاحب المثل الذي قال الله فيه: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقد طالما شرحته لنا، وحذرتنا منه، فهل قاربته الآن وأنا أسير متثاقل الخطا، ضرير الرؤى والشعاع؟!

تجـديد الإيمـان:

قال الشيخ:

أفلحت يا بني إذ وفقك الله لمراقبة نفسك ومحاسبتها، ولكن لا تبالغ في اللوم، وكن وسطًا متوازنا دائمًا، وما علمنا عنك إلا خيرًا، ولكن الإنسان ينسى، والنفس تصدأ وتغفل، ولابد من المعالجة، وتجديد الإيمان في القلوب.

أرأيت إلى كل شيء حولك: ثوبك، فراشك، بيتك، كتبك... إلخ؟

كل شيء يتغير ويتشوش بالممارسة، ولا يعود إلى نظامه ونظافته إلا بالعمل والدأب، وكذلك الأمر في داخلك يحتاج إلى جهاد بالغ في الإعداد والترتيب، والتجديد والتهذيب، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ويقول النبي ﷺ: «**إن الإيمان يخلُق في القلوب كما يخلق الثوب فجددوا إيمانكم**»(١).

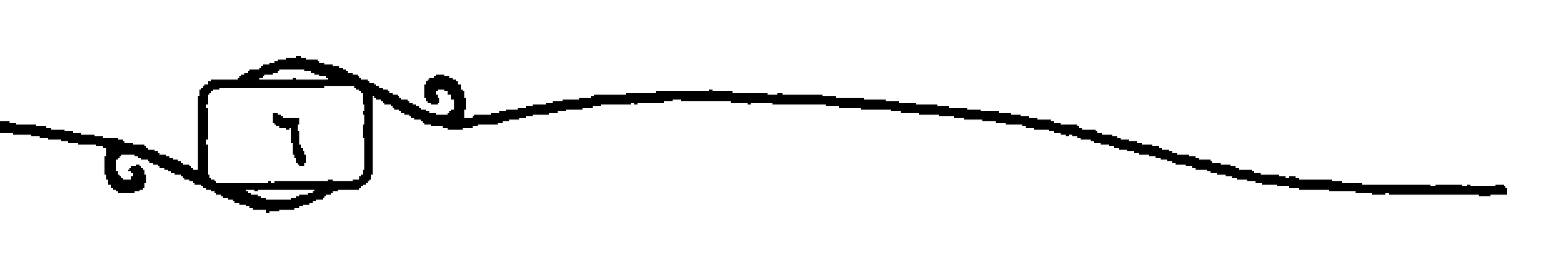
والحديث من جوامع الكلم، ومن جلائل الحكمة النبوية الشريفة، وهو على إيجازه يشتمل على (حقيقة نفسية) مؤكدة، وعلى (تشبيه) يجعلها كالمحسوس، وعلى (أمر) صريح بتجديد الإيمان.

انظر- يا بني- إلى ثيابك- مثلا- كم يبذل فيها غسلا، وإصلاحا، ومحافظة، ورتقًا، ثم تجديدًا شاملاً إذا بليت، ثم هذا يتكرر مع الساعات والأيام، والشهور والأعوام، ولا يمل منه أحد...

ولاشك أن (الإيمان) أولى وأجدى وأبقى، فينبغي أن تتعهده ليظل على إشراقه في القلوب، أو ليعود لذلك إذا رث أو تكدر، والله تعالى أحق أن نتجمل له بما يليق بجلاله!!

---

(١) رواه الإمام أحمد وغيره، وخلُق الثوب (بمعنى بَلِيَ) يخلُق من باب سهُل.



قال الفتى في أسى:

كيف السبيل؟! وإني والله في حاجة إلى دليل يأخذ بيدي في هذه الظلمات، وأرجو أن تبسط لي القول، وتحدد لي المراحل فإني حائر!!

قال الشيخ في تواضع صادق:

رحمني الله وإياك يا بني ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

وأنا لست هناك، وأدلاء هذا الطريق ما وقفوا مثلي عند شواطئ الكتب، وإنما أضافوا إليها مهارة الإخلاص، وخبرة العمل: من سهر الليالي، وظمأ الهواجر، ومكابدة الفيافي، وشفافية الوجدان والمشاعر، وقد أوجزت لك ما يكفي، وأرجو أن تسمع ذلك أمّارتي بالسوء فتجتهد في تحقيقه قبلك، فإني له أحوج منك إليه!!

قال الفتى في انكسار ظاهر:

يا شيخنا إني غريق، وقد اثاقلت إلى الأرض، وأوشك أن أضيع، وإن لي في عنقك حقا، فلا تتركني في هذه الغابة الموحشة، ولا تكتم عني علما هاديًا مما علمك الله ﷻ!!

قال الشيخ في أسى:

والله يا بني ما لأحد منا برؤية النار من طاقة؟ فكيف بلجامها؟ الذي أخبر به الصادق المصدوق ﷺ في قوله: «من كتم علمًا يعلمه أُلجِم يوم القيامة بلجام من نار»[1].

ولقد سألت – يا بني – عن عظيم، يسّر الله علينا جوابه والعمل به جميعا، وإنما نريد أن نركز فيما يعيننا على التنفيذ، ويعينني وإياك على تجديد إيماننا، فإن الأمر جدّ خطير لمن خاف مقام ربه، وقدر الله حق قدره، واستشعر من أعماق قلبه حكمة وجوده ومصيره.

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي وابن ماجة وابن حبان من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ركائز التجديد:

والأمر – يا بني – يتلخص في شيئين هما:

أولاً: توفيق المولى ﷻ لعباده.

ثانيًا: عزائم المؤمنين في العبادة والطاعة.

أما (الأول) وهو التوفيق الإلهي فيمثل حقيقة الحقائق، وهو واقع ملموس لا يحصى:

- لقد خلقنا الله تعالى بيديه، ونفخ فينا من رُوحه، وأسجد لنا ملائكته، وعلمنا الأسماء كلها، ووفقنا للتوبة بعد الخطيئة الأولى.
- وحين انقسم الناس فريقين جعلنا- بتوفيقه- في خيرهم فرقة، واختار لنا الإسلام دينا، واختارنا لهذا الشرف الأسمى قبل أن يكون لنا كيان ولا بنيان.
- وحينما انقسم المؤمنون إلى طائعين وعصاة جعلنا- بتوفيقه- في خيرهم وجهة، فأيقظنا والناس من حولنا نيام، وأنار طريقنا والكون كله يخب في ظلام!!
- ثم حين فاضل بين الطائعين جعلنا – بفضله العظيم- في عداد القائمين بأمره، الحاملين لدعوته، المنضوين تحت راية نبيه ﷺ، ولولا فضل الله لانطلي علينا زيفِ الدعوات، وزخرف الرايات!!
- ثم لما سلك بنا طريق أنبيائه وأحبائه، وأجرى علينا سنته فيهم، وجاء الموج المتلاطم من كل الجهات، ضرب علينا سرادقات رحمته وحمايته، وأنقذنا من الذئاب العاوية، والوحوش الطاغية، وجعلهم هم أثرًا وعبرًا...!

وعلى طول الطريق وضراوة المحنة ساخت أقدام، وضلت أفكار وأفهام، وراح المبتلون يشربون من أنهار الغواية، ويعلنون منك البراءة.. أما أنت وأصحابك فقد ربط الله على قلوبكم، وحفظكم من بين أيديكم ومن خلفكم، مع ضعفنا، وقلة حيلتنا وهواننا على الناس!!

فمن لنا ولك مثل مولانا وربنا؟ والذي يتمثل في كل ذرة من وجودنا وأحوالنا قوله الحق: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

ومن لنا ولك مثل مولانا وربنا الذي وعدنا وعد الصدق: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وصمتا معا يتأملان كلمات القرآن العظيم، وما فيها من فضل غامر، ووعد صادق، ومعية علوية منذ التشريف، وعند التكليف، وبعد المجاهدة والابتلاء، والله ذو الفضل العظيم.

وعاد الشيخ يستأنف الحديث بعد أن طال الصمت:

لقد أردت لك يا بني أن تسبح سبحًا طويلا في معاني القرآن العظيم، لأنه روح الحياة، ونور الطريق، وزاد المسير في السفر الطويل، وهو:

الأمر (الثاني) أعني عزمة المؤمن:

حين يخلص النية، ويجمع الهمة، ويعزم العزمة ممتزجة بالتوفيق والاستعانة، ويرسل الصيحة في جوف الليل: (يا رب، يا رب) فيجيبه كما جاء في الأثر: (لبيك عبدي).

إنها عزمة التجديد لما رث من إيمان المؤمن، ولها مراحل تحققها، وتنميها، ولها مقياس تقاس به فيعلم المؤمن حاله كلما ربا في الخير، أوْ خبا منه الضوء!

قال الفتى: أتأذن لي أن أكتب حتى أرجع إلى ذلك للحفظ والمذاكرة؟!

قال الشيخ: حاذر - يا بني - أن تأخذ المسائل من منزع الفكر والعقل وحدهما، وألا بردت حرارة الإيمان في قلبك، ودع الحقائق العلوية تقرع القلب أوّلاً، حتى تخالطه بشاشة الإيمان، وتملأ جوانبه، ولقد نزلت الأمانة **«في جَذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن وعلموا من السنة»**[1].

والعلم شيء جليل عظيم، وهو نور مبين، لكنْ لكل مقام مقال، فدع الكتابة الآن، وفرّغ قلبك لجوامع المعاني والحقائق، وخير لي ولك أن نقوم بعد التذكرة للعمل والجد والاجتهاد، ثم للكتابة وقتها، وللحفظ أوانه، وعسى أن أجد فسحة من الوقت أكتب لك شيئًا من ذلك إن شاء الله تعالى مرتبًا موجزًا.

قال الفتى: حق ما تقول يا مولانا، ولكني حريص على أن أنقل ما أسمع إلى غيري من الإخوة مجموعًا، وأدعوهم إليه.

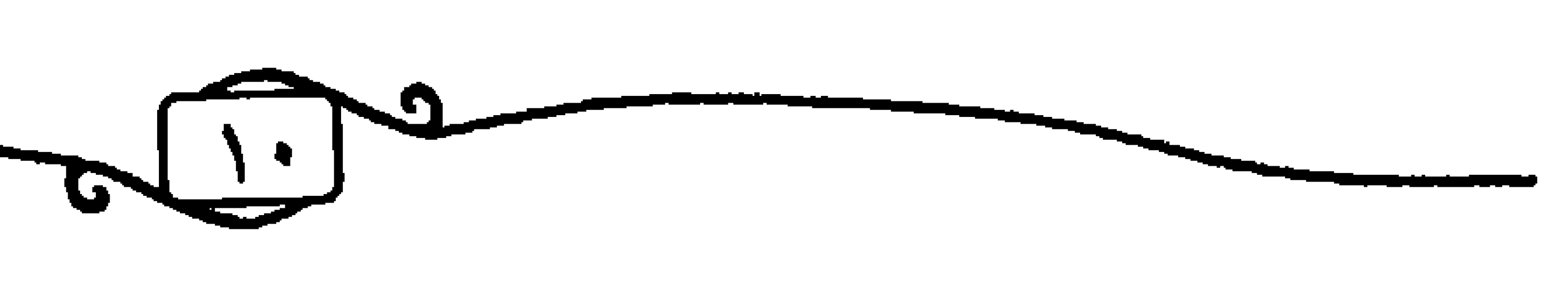
قال الشيخ: دع عنك غيرك الآن يا بني، ولنجتهد أنا وأنت في فكاك عنقينا، وما أظن أن ينقذ الغريق غريقًا، وإنما هو في حاجة إلى الإنقاذ أولاً، ثم إذا اجتهد في التدريب الشاق الطويل مدّ يده لإنقاذ الغير، ولولا أنك ذكرتني بلجام النار ما حدثتك، إن لي بنفسي شغلا مريرًا، فلنصبر طويلا حتى تستقر هذه المعاني في أنفسنا، وعسى إن أخلصنا لله أن يتعدى أثر العمل الصالح إلى غيرنا، فتكون دعوة عملية بغير كلام كثير، ولعلك تذكر كلام المربين الصالحين من قبل حين قالوا:

«حال رجل في ألف رجل خير من كلام ألف رجل لرجل».

وهنا الذي نحن فيه مرتبة غير مرتبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي هي واجبة على المسلم في كل حال، ولا ينبغي له أن يدع ما يليق به من مراتبها الثلاث!!

---

(١) هذا المعنى مأخوذ من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي رواه البخاري ومسلم.



ثم يتابع الشيخ حديثه، ويعود إلى لب الموضوع:

معالم العزيمة:

يا بني: إن لكل طريق معالم يهتدي بها السالكون في ظلمات البر والبحر، أو في وضح الشمس والنهار على سواء، كما قال تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

فإذا عزمت على السير فاحفظ طريقك، وانتبه إلى معالمك، كما جاء في الأثر: «إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم...» ، ولا يتم للعبد إيمان، ولا يتجدّد في قلبه يقين، إلا بقدر ملاحظة هذه المعالم الهادية أو أصولها الجامعة مثل:

١- إجلال المولى سبحانه وتعالى وتعظيمه وتوقيره:

والمراد استشعار هذه المعاني على أوفى الوجوه، وتربية القلب، والجوارح على أساسها، وتذكير النفس دائمًا بأنه سبحانه هو رب الكون ومليكه، وهو خالق كل شيء ومدبره، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، وبيده وحده أزمّة الكون، وناصية المخلوقات، ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦].

وهو سبحانه العليم الخبير، يرانا ويسمعنا، ويحيط بنا، السر عنده علانية، والغيب عنده شهادة.

وهو سبحانه الفعال لما يشاء، ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٣، ٤٤].

وبالإجمال: فكل كمال خطر ببالك فالله تعالى فوق ذلك. وأعلى وأجل من ذلك، ولا تستطيع اللغات أن تحيط بجلال الذات، أو بعظمة الصفات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وهذا الإجلال من أعظم القربات والعبادات، وقد جاء في الحديث «أجلّوا الله يغفر لكم»[1].

فإذا داوم العبد على استشعار هذه المعاني الجليلة، وأجال فيها فكره ومشاعره، انقدح في قلبه نور الإيمان، وأضاء له أمره، واستضاءت به حياته وسائر أحواله، ولذلك جعل الله تعالى هذه الحال وصفًا لأولي الألباب فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأعظم ما يعين العبد في هذا الجانب أن يتذكر دائما فقره وحاجته إلى مولاه، وأن يتذكر دائمًا نعم المولى السابغة عليه هو بذاته، في نور عينيه، وسمع أذنيه، والهواء ينساب لينا هادئًا إلى رئتيه، ثم الأعاجيب في مخه وعظمه، وعصبه وشعره، وكثرة لطف الله تعالى به، ولولا فضله تعالى لأزعجنا وجيب قلوبنا في صحونا ومنامنا، وبالجملة فهو حفيّ ودود بخلقه، وصدق ربنا: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا...﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ثم إذا تأملت صفات القوة والعزة، وأنهما له جميعًا على أوفى الكمال، فهو الفعال لما يشاء، وهو نافذ الأمر والسلطان، يقول للشيء كن فيكون، وله القهر والجبروت ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

ومن كان في تردد فليتابع كأس المنون كيف يدور؟ ولينظر عاقبة أعداء الله في الأرض، وانتظام العقوبة فيهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

فهذا وذاك: (أي ملاحظة النعمة والقوة) يقدحان في نفس العبد وسلوكه حبًا وذلاً، ورجاء وخوفًا، ورغبة ورهبة، وإقبالاً ومودة وحسن مراقبة، واستحياء من

---

(١) رواه أحمد والطبراني في الكبير، وأبو يعلي في مسنده عن أبي الدرداء ﷺ.

أن يراه مولاه حيث نهاه، أو أن يطلع منه على قلب فاسد النية، خبيث الطوية، عفن الرائحة!!

وإنما همة العبد- حينئذ- أن يرى منه مولاه المنعم المتفضل، والقوي الظاهر كل خير وبر، ظاهرًا وباطنًا.

وهذا أمر – يا بني- لا نطيل فيه فإنه أول حروف الهجاء في كتاب التوحيد والعبودية.

وإنما مقصودنا الاهتمام بتركيز الاجتهاد فيه، حتى يصير طبعًا غالبًا، وخلقًا متمكنًا راسخًا.

٢- اليقين بالبعث والحساب والجزاء:

والعلم وحده بهذا هو مجرد (معرفة) تحتاج إلى (يقين) قلبي، يجعلها حقائق مجسمة، كأنها رأى العين، ولمس اليد، ولا يكون ذلك إلا إذا أخذت بتلابيب نفسك في صحوها ومنامها، وغدوها ورواحها، وعلى كل أحيانها، فتلزمها الشعور الغامر بضجّة القيامة، وهول المحشر، وحساب الديان: «**ليس بينك وبينه ترجمان**»[1].

ثم توقف هذه النفس- كأنها ترى وتسمع- على النار وقد سُعّرت، والخلائق وقد جُمعت، والموازين وقد نُصبت، والصحف وقد نُشرت، والصراط وقد ضرب على ظهراني جهنم.

وقل لها: يا نفس: هل لك طاقة بأدنى النار؟!

وكيف تصبرين على نار الدنيا وبينها وبين نار الآخرة ما لا يقاس؟!

وإذا كنت لا تستطيعين صبرًا على العذاب فكيف لا تصبرين على الطاعة؟!

(١) في الصحيحين من حديث عدي بن حاتم مرفوعا: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان....».

وكيف لا تصبرين عن المعاصي؟ والدنيا قصيرة الأمد، والعمر محدود، ومهما طال الأمر فما هو إلا كساعة أو بعض ساعة؟!

ملكة (الرهبة):

ولا يزال دأبك هذا وأمثاله في تربية النفس الجامحة، حتى تتربى فيها (ملكة) الخوف من النار، بعد الخشية من الله ﷻ، وإنما العلم بالتعلم والتدرب، وقد عُلّمت الأسود، والفيلة، والنمور، والصقور، بل ما هو دونها من القردة، والديكة، والكلاب، وأمثال ذلك كثير مما تعلمت بالتدريب ما يغاير طباعها، وأصبحت تقوم بأعمال وحركات محدّدة، بإشارة من مدربيها ومعلميها!!

فلا نكون نحن البشر أقل من هذه، ولا يكون عزمنا دون هذه، ولا ينبغي أن يقف جهدنا في ترويض أنفسنا عند حدود العجز والكسل، ولنجعل ذلك شواظًا نلهب به أنفسنا كلما توانت، أو خمدت جذوتها: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...﴾ [البقرة: ٢٦].

والمؤمن الراغب في النجاة يرى كل شيء بعين آخرته، كما روى عن الجنيد ﷺ قال:

(أخذت عبرة من هرة وقفت تنتظر فأرًا، وقد جمعت كل حواسها، فنوديت في سري، يا ضعيف الهمة، أليس عندك قوة هرّة؟! وإذا كان فهل مطلوبك كمطلوبها)؟!

ملكة (الرغبة):

وبجوار هذا أو معه، ينبغي أن تأخذ نفسك من جانب الرغبة، والتأميل في الخير والمنافع المشروعة، فإن ذلك من غرائز النفس الأصيلة، «فحرّك لها حُوارها تحنّ!»[1]، واحملها على الطاعة والعبودية بأجنحة الشوق إلى خيام اللؤلؤ، وحياض

---

(١) هذا مثل عربي قديم، والحوار ولد الناقة الذي يرضع منها قبل الفطام، فإذا فطم سمي: (الفصيل).

الكوثر، وقصور الفردوس، وصنوف الفاكهة والشراب، والكواعب الأتراب، ثم تسامَ بها إلى رضوان من الله أكبر، وإلى ذروة المراتب: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ... ﴾ [يونس: ٢٦].

والقرآن العظيم خير حادٍ للأرواح والأشواق، إلى ما أعده الرحمن من نعيم الجنات، ومهما امتد الخيال فلا يبلغ آفاق هذا الجلال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ... ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1].

فإذا دأب العبد على استشعار هذه المعاني العالية، تأصلت فيه (ملكة) الرغبة فيما عند الله تعالى من جلائل النعيم، فحينئذ يحلق بجناحين هما: (الرغبة والرهبة)، وقد كان هذا دأب الأنبياء والصالحين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا... ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قرة الأعين:

فإذا وفقنا الله ﷻ لاجتياز هذه المسافات الشاسعة فحينئذ تقر عين العبد بالطاعات والعبادات، وتصبح مبعث سروره، ومجمع حبوره، ولذة قلبه، وفرحة وجدانه وكيانه، فيفر إليها لا منها، ويقرّ بها لا بغيرها، وتجتمع همته لها لا عنها.

وهذا يفسر لك الخوارق والأعاجيب التي تمت على أيدي الجيل المبارك من أصحاب النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان، مع ملاحظة أن معظم الصحابة ولدوا وتربوا في (الجاهلية)، فكيف وصلوا إلى هذه القمم العالية- بعد أن قالوا ربنا الله بصدق- من الخشوع والانقياد لرب العزة والجلال، وبذل النفس والنفيس،

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

وركوب الصعب والذلول في سبيل الله تعالى؟! ومقارعة الأعداء من كل جانب، واقتحام ممالك الأرض على قلة العدد والعدة؟!

وتأمل بعض ما أثر عنهم لترى مبلغ سرورهم بالعلي الأعلى، وتعوّد أن تتمثل المعاني جيدًا باعتبارها واقعًا حيا يتحرك في مجاله وظروفه، لا مجرد ألفاظ وكلمات تطوق السمع، أو تقرأ على الورق.

هل تتصور شخصًا حيًّا يساق إلى القتل، أو يفاجأ به فيكون على غاية الابتهاج؟!

- هذا حرام بن ملحان ﷺ يفاجأ بطعنة غادرة من خلفه تنفذ من صدره، فيصيح على البديهة: «فزت ورب الكعبة».

- وهذا عمير بن الحمام يبشره ﷺ بالجنة يوم بدر فيلقى تمرات كانت في يده، ويستطيل الدقائق التي تفصل بينه وبين الشهادة، ويقبل على الموت في سبيل الله وهو يهتف:

ركضًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقى والبر والرشاد

فأي نوع من البشر هذان- وأمثالهما- الذين بلغوا ذروة الكمال؟ وهذان الأنصاريان من غمار الناس، لم يعرفا قبل ذلك بمزيد من العلم، أو الشهرة، لكنه الإخلاص والإيمان، والتوفيق الإلهي الوضاء، ما أن يمس شغاف قلب إلا استنار، وانطلق إلى الدرجات العلا كلمع البرق، أو كلمح البصر.

وآية ذلك أن خالد بن الوليد، الذي ظل على كفره إلى ما بعد (الحديبية) والذي أوقع بالمسلمين غاية الأذى في أحد، والخندق وغيرهما. فانظر إليه كيف أخرجه الله

من أحلك الظلمات إلى النور، فيقول: (والله لليلة شديدة الجليد، أغزو في سبيل الله مع سرية من المهاجرين والأنصار، أحب إليّ من البناء بعروس حسناء).

إنه التوفيق الإلهي العظيم ابتداء.

ثم هو العزم الصارم، والجد الجازم، الذي أخذ به هؤلاء الرجال أنفسهم، في قضية الوجود والمصير، رضي الله عنهم أجمعين.

٣- التوبة النصوح:

بأن يقبل العبد على نفسه وحيدًا، في جلسة أو جلسات حاسمة صارمة، فيذكرها بالمهمة العظمى التي خلقت من أجلها، وبالأمانة الثقيلة التي حملتها، وبالنهاية الخطيرة التي تنتظرها، فلماذا إذن تسوّف التوبة، وتستوحش الأوبة، وتتمرغ في غبار الإلف والعادات؟!

هل ضمنت امتداد الأجل؟!

هل اطمأنت إلى الحصاد والنتائج؟!

هل اطلعت على الصحائف، وفرغت من الحساب؟!

كل هذا غيب مجهول، فإلى متى؟! وإلى أين؟!

وينبغي أن يستحضر العبد أن مولاه- مع غناه المطلق- يفرح بتوبة عباده، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، وفي الأثر أنه سبحانه يحب أنين التائبين كما يحب زَجَل المسبحين، وفي الصحيحين من حديث أنس ﷺ صورة بهيجة يضربها رسول الله ﷺ مثلا لهذا فيقول:

«لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم، سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة» وقد رواه مسلم بأوسع من هذا.

قال الفتى على استحياء:

أجدني كلما حدثت نفسي بهذا، خامرني شعور مبهم فأقول في نفسي: مم أتوب؟ وأنا قائم بتنفيذ الأوامر والنواهي قدر طاقتي، وشكواي دائمًا هي أنني لا أجد في نفسي إشراق العبادة، وبهجة الطاعة؟!

قال الشيخ: غفر الله لي ولك يا بني وللمؤمنين والمؤمنات، لكن أول ما ينبغي أن تتوب منه هو هذا الشعور المبهم كما تقول، ومن الخطر البالغ أن يدخل على قلب العبد الرضا بعمله عجبًا أو إعجابًا، ورحم الله القائل:

ولو أن نفسي مذ براها مليكها

مضى عمرها في سجدة لقليل

وتأمل أعواد القمح قبل الحصاد، ترى السنبلة المليئة تنحني حتى لتكاد تلامس الأرض، والسنبلة الفارغة تشرئب وتتطاول على ما حولها!!

وكذلك القلب كلما امتلأ بأنوار الجلال الأعلى، تطامن إلى الأرض، وتخاشع وتقاصر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ثم تأمل - يا بني - كيف يُقْسم النبي ﷺ لأصحابه حين أمرهم بالتوبة والاستغفار ويقول لهم: «**والله إني لاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**» رواه البخاري.

ولك أن تتذكر جهاده ﷺ في البلاغ والدعوة طوال العهد المكي، ثم جهاده المرير في أرجاء الجزيرة العربية بعد الهجرة، وصلاته وعبادته، وصبره واحتسابه، حتى وقف في حجة الوداع، وقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، وأنجز الله تعالى له ما وعده من النصر والتمكين، فانظر ماذا قال عليه السلام، وتأمل كل لفظ جيدًا:

روى الطبراني في مناسكه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان فيما دعا به رسول الله ﷺ في حجة الوداع:

«اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري.

أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وابتهل إليك ابتهال الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عَبْرته، وذلك لك جسده، ورغم لك أنفه.

اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيًا، وكن بي رءوفًا رحيمًا، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين»[1].

وليس هذا الإخبات الشامل من باب التواضع وهضم النفس كما قيل، ولا من باب الشعور بالذنب، فقد غفر له كل تقصير، ولو كان من حسنات الأبرار.

وإنما الصحيح أنه إجلال العبد لمولاه ذي الجلال والإكرام، والإقرار المطلق بعظمته وتفرده، والاعتراف بحاجته له سبحانه، وفقره إليه، وهو ما بلغ شيئًا من كمالاته البشرية إلا بفضل ربه ومولاه، ولعله لهذا كان يكثر من الإخبات والخشوع بين يدي مولاه؛ ففي الصحيح من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع قال: **«اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أَهْلَ الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد».**

فإذا سجد قال أضعاف ذلك تعظيما وتمجيدًا لرب العالمين.

---

(١) انظر سيرة ابن كثير بتحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد جـ٤ ص ٣٥٠.

قال الشيخ يسأل نفسه وفتاه:

هل أدينا الشكر كله لله أو قاربنا؟! كلا، وسبحان ربنا لا نحصى ثناء عليه ولو حرصنا.

هل تجنبنا الذنب كله؟! كلا ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

هل تجنبنا الحرام كله، من الهمز، واللمز، والسخرية، والتنابذ بالألقاب، والغيبة، والنميمة، والنظرة المحرمة....؟ إلخ.

هل أدينا العبادات على وجهها، ويا رُبّ صلاة يؤديها العبد تكون كالجثة الميتة، أو تكون استغفارًا يحتاج إلى استغفار؟

ويا رُبّ عبادة رأى فيها العبد نفسه، أو راءى بها الناس، فيهلك بين العُجْب والرياء!!

يا بني لا ينبغي أن نخدع أنفسنا بأوهام الرضا وفي الإناء ما فيه من الكدر، وكان الحسن البصري ﷺ يقول لتلاميذه في مواعظه البالغة: (ويحك- يا ابن آدم- تضحك، ولا تدري؟ لعل الله اطلع على عملك فقال: لا أقبل منك شيئًا)!!

وكان سفيان الثوري- على شدة ورعه- لا يُرَى إلا كراكب سفينة توشك على الغرق، وكان يكثر من ترديد (يارَبّ سَلّم سلّم) ولم تكن هذه الأقوال تصنعًا ولا تكلفًا، وإنما كانت ثمرة الإيمان المتجدد في صدورهم حين يقرأون القرآن الكريم، ويروون السنن الشريفة، ويفقهون النذُر.

٤- المحاسبة والمتابعة:

قال الفتى وكأنه قد بوغت وعلَته كسرة:

إني استغفر الله العظيم وأتوب إليه، فقد فتحت لي أبوابًا كنت غافلاً عنها، ولعل هذا كان من أسباب تثاقلي، وما اكتنفني من ظلمة نفسية!!

قال الشيخ في استكانة: يرحمني الله وإياك يا بني، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، والمؤمن في حرب ما عاش، فإن غفل انقض عليه أعداؤه، فكان بين أسير أو قتيل والعياذ بالله تعالى!!

إن الأهواء، والغفلات، ووساوس الشياطين، والشبهات والشهوات وغيرها كثير، تترادف على القلوب كأنها أمواج في بحر لجيّ، فمن تحصن منها بمولاه نجا وسلم، ثم يلحق به من سقط في الطريق ثم استفاق وقاوم وجاهد، أما من استنام وتخاذل، أو تمرد وتطاول فسيكون من المغرقين!!

والعبد يجد من نفسه كل إباء ونفار، فلابد من معارك ضارية بينه وبينها حتى يسلس له قيادها، وتنقاد لأمر الله ﷻ في يسر، ثم تتسابق في مرضاته تعالى.

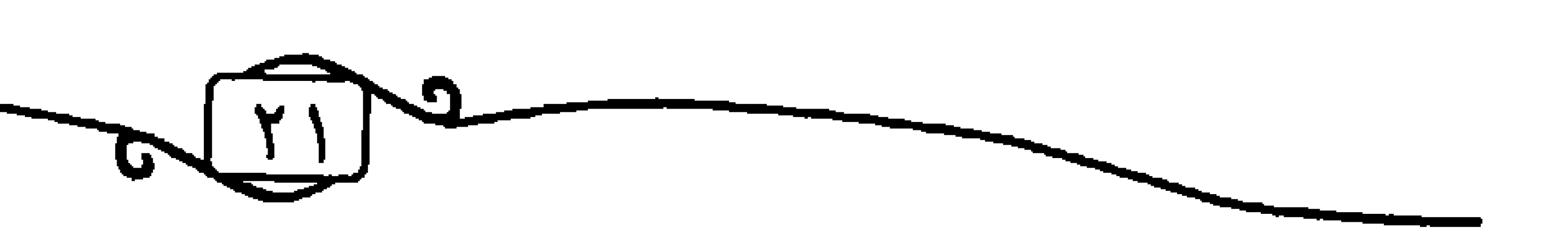
ولا يتغلب العبد عليها في هذا إلا بكثرة محاسبتها، ومتابعة لومها وتقريعها إذا ونت أو جنت، والتصحيح العملي في كل حال بما يناسبه، فإذا رأيت منها كبرًا أو عجبًا، فأرغمها على عمل تأنف منه، أو احرمها من لذائذ تحبها من طعام، أو شراب، أو ثياب، أو سمر، أو رياضة محبوبة.... إلخ.

- وتقول لها في حسم: لا أعود بك إلى ما تحبين حتى تقلعي عن مواطن العبث والعفن!!

وإذا أمْعَنت في لغو- ولو كان مباحًا- وخشيت أن تعتاده فافرض عليها قدرًا معلومًا من الاستغفار، والتسبيح، ولو بلغ المئات أو الألوف، فإن ذلك دواء ناجح بإذن الله!!

أو ألزمها بزيادة عمل خير كصدقة مالية، أو صيام أيام، حتى تشعر دائمًا أنها محاسبة مراقبة!

وخذها بالرفق أولاً، ثم تدرج بها حسب استجاباتها، وإلا فالزم جانب العزم



والحزم في تربيتها، والعقوبة مطلوبة في نهاية المطاف إن جمحت نافرة عن الطريق السوي، خاصة عند الإصرار على الذنب، وكان شيوخنا رحمهم الله يتمثلون بهذا البيت القديم:

إن عادت العقرب عدنا لها بالنعل، والنعل لها حاضرة

قال الفتى: قرأت عن بعض العبّاد والعارفين عجائب في محاسبة النفس وعقابها، فهل لذلك أصل شرعي، أو هي اجتهادات منهم في التربية؟!

قال الشيخ: زادك الله حرصًا على الخير وتثبتًا يا بني، ولكن كن على حذر من عدوك الشيطان، الذي يوهن في قلب المؤمن حرارة العزيمة والانقياد، ولقد يأتيه من باب الحرص على طلب الدليل، حتى يفتر عزمه، ويتثاقل خطوه، وتنصرف همته عن الخير.

وأنت- بعدُ- واجد في الكتاب والسنة، وعمل السلف الصالح ممن يقتدي بهم الكثير من الأعمال والأدلة، واقرأ في ذلك قوله تعالى وهو يذكر جلائل صفات المؤمنين: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢].

وما يرويه الترمذي بسند حسن صحيح عن النبي ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها..**»

وأنت تقرأ في التفاسير والسيرة قصة **أبي لبابة الأنصاري**، وهو صحابي صالح، وكان حليفًا لبني قريظة في الجاهلية، فلما خانوا رسول الله ﷺ، ونقضوا المواثيق في عام الخندق (غزوة الأحزاب) حاصرهم رسول الله ﷺ، فطلبوا أبا لبابة لاستشارته، فلما دخل عليهم الحصن سألوه عما ينتظر أن يعاملهم به رسول الله ﷺ لو استسلموا؟ فلم ينطق بحرف، وإنما أشار بيده إلى حلقه يعني (الذبح)!!

يقول: **فوالله ما انتقلت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله**، فانطلق من

فوره إلى المسجد في المدينة، وربط نفسه في سارية منه، وأقسم ألا يخرج من هذه العقوبة حتى يتوب الله عليه، وظل على ذلك عدة أيام لا يفك إلا لصلاة أو قضاء الحاجة، حتى نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

فلما فكَّه رسول الله ﷺ عاقب نفسه مرة أخرى، بأن أقسم ألا يطأ بقدميه أرض بني قريظة أبدًا، حتى بعد أن أورثها الله للمسلمين، لأنها كما قال: **أرض عصى الله ورسوله فيها!!**

وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما: أن أبا لبابة تخلف بلا عذر عن غزوة تبوك، فربط نفسه في المسجد هو وخمسة أو سبعة أو تسعة حتى أنزل الله تعالى قبول توبتهم[(١)].

وهذا عمر بن الخطاب ﷺ يقف يوم الحديبية معارضًا الشروط الصعبة التي عرضها المشركون للصلح، وكان في ذلك ناصحًا صادقًا، وقال: لن نعطي الدنية في ديننا.

ولكنه غفل عن أن رسول الله ﷺ يأتيه الوحي الإلهي، والله أعلم بأسرار السموات والأرض، فكان عليه الامتثال والتسليم كما فعل أبو بكر ﷺ.

وعلم رسول الله ﷺ صدق نيته، فعفا عنه، وبشره بنزول سورة الفتح.

ولكن عمر ﷺ لم ينس خطأه بعد ذلك أبدًا، فكان يقول: (يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأي اجتهادًا، فوالله ما آلو عن الحق...).

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.



ثم يضع على نفسه عقوبة عجيبة فيقول ما خلاصته:

(مازلت أصوم، وأتصدق، وأعتق الرقاب، وأصلي، وأستغفر من الذي صنعت، مخافة كلامي الذي تكلمت به يوم الحديبية...).

ترى- يا بني- كم من العقوبات كان سيفرضها على نفسه لو كان الخطأ بسبب الهوى، أو التفريط في أمر الله ورسوله، أو لفرط الأنانية وحب التسلط، أو لشهوة الظهور والرياء؟! ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين، فقد كان هذا الخير دأبًا شائعًا فيهم، ولولا مخافة التطويل لذكرت لك من ذلك الكثير **«ويكفيك من الزاد ما بلغّك المحل»** كما تقول العرب في أمثالها السائرة.

أجل يا بني:

إنها معركة ضارية طويلة دارت في أغوار القلوب، وشعاب النفوس البشرية، فلما قهروا هواهم، وهزموا شهواتهم، واستجابوا لله وللرسول ظاهرًا وباطنًا، وأخرجوا حظوظ أنفسهم من أنفسهم، حينئذ صدقهم الله وعده الكريم:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا... ﴾ [النور: ٥٥].

لذلك تداعت أمامهم الممالك العظمى، القائمة على الروابط الإدارية، والشهوات الأنانية، في سنوات معدودات لأن حرارة الإيمان في صدورهم كانت أقوى من متاع الطين والتراب، وزخارف الذهب والفضة، **﴿وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾** [الحج: ٤١].

ومن أعجب العجائب أن الذين صنعوا هذه الملاحم في واقع الأرض، كانوا يربّون على تقصير الآمال في هذه الدنيا، وعلى كثرة تذكر الموت، والنظر إلى القبور

الصامتة، واللحود الضيقة، وإيثار الحياة الأخرى التي لم يروها، وإنما أيقنوا بحديث الله تعالى عنها، فصلحت لهم الدنيا والآخرة جميعًا!!

بين طريقين:

قال الفتى: ما أطول آمالنا، وما أثقل مهمتنا يا مولانا، ولكن هل كتب على المؤمن أن يعيش هذه الحياة مسحوقًا مكبوتًا، بينما الدنيا حوله تضج بالحركة والاندفاع؟!

قال الشيخ وهو يسدد نظرة ثاقبة إلى أغوار نفسية الفتى، التي تتأرجح بين حبه الفائق لدينه، وضغوط فتنة الدنيا المعربدة من حوله:

إن في ديننا يا بني فسحة، وهو الحنيفية السمحة، وقد وازن لنا ربنا بين قبضة الطين ونفحة الروح، لذلك أباح لنا الطيبات، ولكنه هذب لنا استعمالها رحمة بنا، وتأكيدًا على مهمتنا الأصيلة، فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

وقد طيب لنا من الدنيا كل حلال صالح، وذم منها كل خبيث مفسد، أو صارف عن معالي الأمور، التي ترشحنا للخلود الأسمى في جوار الرحمن الرحيم.

ولكننا لا ننسى أبدًا أننا حملنا أمانة عظيمة جسيمة، وحق لنا أن يطول حزننا في هذه الدار وانشغالنا، إذ الأمر يتعلق بصفقة الآخرة، وقضية الوجود والمصير، وقد أشفقت الكائنات العظيمة أن تحمل ما حملنا:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فالإنسان صائر لا محالة إلى واحد من اثنين:

إمـــا النعيـم المقيم، أو العـذاب الأليم!!

والنتيجة قد غيبت عنا، وأرسلنا في المضمار نـركض، فمـن يسبق ومـن يتـأخر؟ ومن يربح ومن يخسر؟ ومن يجتاز العقبات ومن يتعثر؟ وإذا لم يهـتم العبـد بهـذا فـبم يهتم بعد؟ وفيم يكدح؟ ولمَ يجد ويجتهد؟! ورحم الله القائل:

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكـاؤهن لغـير وجهـك أضـيع

وفي الأثر: (يا رَبِّ ماذا فقد من وجدك، وماذا وجد من فقدك)؟!

وهذا الكـلام يصلح لكـل مسـلم ومسلمة، باعتبـارهم أمـة (الإجابـة)، وحملـة الأمانة في أرض الله بما علمهم الله تعالى. **لكـن (الطلائـع) التـي انتـدبها ربنـا للـدعوة المعاصرة،** والتي تمثل أمل الإحياء والإنقـاذ، بعـد مـا فرطـت أمتنـا طـويلا... هـؤلاء وأمثـالهم لهـم حـديث آخـر، فـوق مـا قلنـا **﴿وَلِكُـلٍّ وِجْهَـةٌ هُـوَ مُوَلِّيهَـا فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾** [البقرة: ١٤٨].

لقد طالت جلستنا حتى صارت جلسات، ولم نخطط لذلك، وإنما هـي المقـادير الغالبـة، والضرورة اللازمـة، شـعورًا بالمسـئولية الدينيـة، ودفعًـا **للظـواهر السـلبية الزاحفة علينا من كل جانب!!**

وأجدني لا أحب التطويـل وتشـقيق الكـلام، وقـد كـان رسـول الله ﷺ يتخـول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة، مع أنه ﷺ قد أوتي جوامـع الكلـم، وبركـات العلـم والقبول... ولكن الإنسان ينسى تارة فيحتاج إلى التذكرة، ويخشـى عليـه الملـل تـارة أخرى فيحتاج إلى الإيجاز والاختصار.

وأرجو أن ينتبه إخوانك الـذين جئتنـي بهـم إلى الخـط الـذي نسـير فيـه مـن أول الجلسـات، **وهـو التـذكرة (لتجديـد الإيـمان) في مجالـه الفـردي، أو في نطاقـه الجماعـي**

الأشمل، لأن دعوتنا تقوم على الفهم الواعي البصير، وعلى العمل والتطبيق، وليس مجرد (المعرفة) التي تتكدس فيها المعلومات، أو يتباهي صاحبها بكثرة المرويات!!

العلم نوعـــان:

١- **علم ضروري**: تفهم به حقائق الإسلام بأدلتها، ليكون ذلك زادًا للعمل الصالح، وطاقة للحركة البصيرة، التي تحرك الناس معها في ضوء اليقين، وحرارة الإيمان. وهذا هو المطلوب من (جمهور) الجماعة عامة.

٢- **علم تخصصي**:

وهذا شأن العلماء المتخصصين في كل جماعة، والذي يتسع نطاقه للدقائق الخفية، والتفاصيل والأجزاء، ورد الشبهات، واستنباط المجهول، مما يحتاج لطول الوقت، واستفراغ الجهد في الاجتهاد والنظر، بل إنفاق العمر كله في ذلك. وإلى هذين تشير الآية الكريمة:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣].

وفي الآية الكريمة إشارة دقيقة إلى أن (الأمراء) في الأمة الإسلامية ينبغي أن يكونوا على معرفة بالعلم الشرعي ولو في حده الضروري، وقد كان الأمر كذلك قبل أن تحدث المفارقة (**بين السلطان والقرآن**) وما أدت إليه من كوارث في الأمة، على امتداد تاريخها الطويل!!

وقد كان الجيل الذي رباه رسول الله ﷺ على هذا النمط المطلوب: أعمقهم قلوبًا، وأقلهم تكلفًا، وأجمعهم إلمامًا بشئون دينهم ودنياهم، وأبعدهم عن السفاسف والقشور، وأكثرهم تعلقًا بمعالي الأمور.

ظواهر مخيفة:

وإني محدثك وإخوانك عن (ظواهر) صعبة شاعت فينا وهي خطر داهم علينا، لأننا نزاول مهمتهم الجسيمة في بلاغ الإسلام، وقيادة الناس به إلى طريقهم المتفرد للنجاة، وهذه مهمة بالغة تحتاج إلى أنماط من الرجال الكبار، المتميزين في إيمانهم، ومحبتهم لربهم ومولاهم، وأشواقهم إلى دار السلام.

وهيهات أن يعطي الله ﷻ زمام الأمم، لجيل يدعو لدينه دعوة شاملة **إلا إذا ربا إيمانه، وجاهد نفسه، وواصل تعهدها ورعايتها**، وعبَّدها لخالقها، ولم يفلت زمامها من يده ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢].

إن ضعف الهمم، وفتور العزائم، وإيثار الأدنى، والتراخي والتسويف، وحب الرخص والمتع، وتتبع المرفهات، والنفور من مواجهة الصعاب والعقبات... كل هذا وأمثاله أمراض خطيرة، تهلك الأفراد، والجماعات، والأمم والدول، خاصة الذين يواجهون الأخطار، ويخوضون المعارك، ويحيط بهم الأعداء!!

خذوا الكتاب بقوة:

ولذلك خاطب الله تعالى عباده ودعاته بالعزائم الناهضة، ورباهم أفرادًا وجماعات على هذه الأخلاق العالية، فحين كان يعدّ موسى عليه السلام لدعوة الفراعنة الغلاظ درّبه قبلها على خشونة العيش، ورعي الغنم، والصبر الطويل على حر البوادي وبردها، بعد رغد القصور ونعيمها!!

وحين أوحي إليه شرائع الحق، ليسوس بها بني إسرائيل بعد هلاك فرعون وجنوده، أمره بهذه العزائم حتى لا ينساها بعد النجاة.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

ولما ترنح بنو إسرائيل في الترخصات، وإيثار الأدنى، واستمراء التراخي، ضرب الله عليهم التيه، ورفع فوقهم الطور، وعيدًا ونذيرًا ثم كرر عليهم الأمر الجليل:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وقد كفل لهم سبحانه وتعالى في هذه التيه الغذاء، والحلوى، والماء، وأراهم المعجزات المتتابعة، تحضيرًا لتمكينهم في الأرض، وجهادهم في سبيل دعوته ودينه..

ومعلوم أن بني إسرائيل تمردوا في مراحل تاريخهم على هذه التربية، واستحلوا محارم الله بأدنى الحيل، حتى بعث الله تعالى فيهم آخر أنبيائهم: يحيى وعيسى عليهما السلام، وكانت مهمتهما الكبرى إنقاذ بني إسرائيل من **الترف والسرف، والانحلال والدنايا التي قادتهم إلى كل الموبقات!!**

ولذلك يقول الله تعالى لنبيه يحيى عليه السلام:

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

وكان عيسى عليه السلام بعده أشد صرامة في الحق، فلما خالفه بنو إسرائيل، كانت القاصمة، فاستبدل الله بهم غيرهم، ونزع النبوة منهم، وحول عنهم الرسالة إلى آخر الدهر!!

فلما بعث الله تعالى محمدًا ﷺ كانت القضية ماثلة، والتجربة الإسرائيلية حاضرة بما قص الله عليهم من القصص، **لذلك بذل رسول الله ﷺ غاية الجهد في تربية أمته، وتنقيتها من أمراض بني إسرائيل المدمرة**، وفي الجانب الآخر وجد من أمته رجالاً كرامًا كبارًا، استجابوا لله وللرسول حين دعاهم لما يحييهم، فأفلح غرسه، واستوى على سوقه، وأينع ثمره، فصاروا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ بفضل الله ورحمته.

الإيمان والعمل:

لقد كان انتصار الإسلام، وتمكين المسلمين في الأرض، يجري بأمر الله تعالى، حسب سنته الدائمة في استخلاف الأمم، حين تتم المعادلة المتفاعلة بين عناصرها وهي:

١- الإيمان الصحيح ﴿بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...﴾.

٢- العمل الصالح (حسب شريعة الله تعالى الشاملة).

٣- المجتمع القائم عليهما، الباذل في سبيلهما ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ... ﴾ [النور: ٥٥].

السنن ثابتة والتوبة معروضة:

فإذا قامت أمة من المسلمين اليوم، ترجو إقامة الإسلام مرة أخرى بشموله، وفي هذه الظروف الحالكة، وقد غصت الحياة حولهم بضراوة الفتن، وزهرة الملذات والشهوات، وتزاحم الشبهات والمضلات، وقد أخذت الأرض زخرفها وازينت، وأصبح زمام الحضارة في قبضة الماديين، الذين كفروا بالله والمرسلين، وأنكروا الوحي والدين، واخترعوا أفحش العقائد، والمذاهب، والأفكار، مع ما هم فيه من نهضة صناعية باذخة، فتنت العقول والأبصار..!!

إنها لكرامة إلهية عظمى أن يقوم فريق من البشر – الآن- بهذه المحاولة، وفي ظل هذه الأوضاع البائسة، لكن لا يتم الأمر إلا إذا كان لديهم من الإيمان، واليقين والعبودية الصادقة، والانقياد المطلق ما يكافئون به هذه الأمواج العاتية!!

لقد وفق إلى ذلك محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، ومن عزم على مثلها، فالطريق واضحة، والآثار باقية، والقدوة شاخصة، **ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.**

فكيف يشيع فيهم الترخص، والأخذ بالأدنى؟!

وكيف يصبح الأخذ بعزائم الأمور استثناء يحتاج إلى جدال طويل، وإقناع مرهق؟!

كيف يحتاج جمهورهم إلى من يفني وقته وجهده لدفعهم دفعًا نحو المعالم ومعالي الأمور؟!

إن الأمر - هنا - يحتاج إلى إعادة الأنظار، وشدة المحاسبة، وتجديد الإيمان!!

ومن قبل ذلك ومن بعده نحتاج أشد الاحتياج إلى خشوع في القلوب والنفوس، وصدق في الضراعة والدعاء، وحسن التوجه في ذلة وانكسار إلى المولى العظيم جل شأنه، ليأخذ بأيدينا إلى مدارج الترقي، حتى نجابه الدنيا من مراصد عالية، يتكسر على سفوحها كل متاع زائف في الدنيا، ولا نرضى فيها بعرض هذا الأدنى!!

لابد من شحنة روحية عميقة عميقة، تمتد إلى أغوار النفس، وتطول عليها المواظبة حتى تترسخ في القلوب، وتصبح كالغريزة أو الفطرة، فتغدو العبادات معها راحة النفس، وقرة العين، وواحة الحياة في معتركها الضنك، وقديمًا قال سلفنا الصالح رضي الله عنهم في مثل هذه: (نحن في لذة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف)!!

وبغير ذلك لن ترى إلا القلق، والتفلت، والشرود هنا وهناك، ثم يذوب الفرد وتتفسخ الجماعات، ويضيع الهدف في نهاية المطاف، وربما يقع ما هو أخطر حين تُستجلب أهداف أخرى تناسب (الأقزام) ثم تبذل في سبيلها الأرواح والأموال، رغم الانحراف والتحريف... وحينئذ يكون (الاستبدال) بسنة الله تعالى، والقرآن العظيم يورد في مثل هذه الأحوال ألفاظًا غاية في التحذير فيقول سبحانه: ﴿وَإِن

تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

والتولي هو الإعراض عن الدين كلية، أو عن حقائقه وقيمه المؤثرة، كالجهاد والإنفاق في سبيل الله اللذين ورد فيهما سياق الآية.

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَّرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

والردة هنا قد تكون كلية، أو جزئية كالتولي، والنتيجة واحدة ولكن المفيد هو تدبر صفات المؤمنين الجدد، فهل يمكننا الاجتهاد البالغ لنكون نحن كذلك، أو نقارب؟ لا خيار لنا في ذلك.

والأمل في الله تعالى أن يجنبنا المهالك، وأن يوفقنا لخير المسالك ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾.

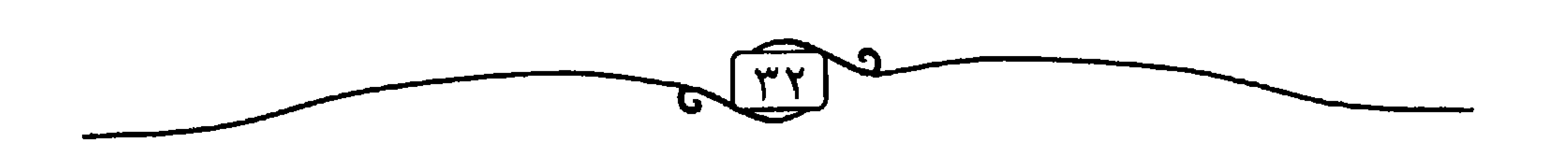
أوّل الأمة وآخرها:

قال الفتى: هذا حق وصدق يا مولانا، وأملنا في الله أن يبلغنا هذه المنازل العلا، ولكن أليس قياسنا برسول الله ﷺ وأصحابه أمرًا بالغ المشقة؟ ومهما اجتهدنا فلن نبلغ منازل صغارهم، فكيف بكبارهم رضي الله عنهم أجمعين؟!

قال الشيخ:

صدقت يابني إذ عرفت الحق لأهله، فلهم فضل السبق بلا منازع، ولهم أشرف الجهاد والاجتهاد مع رسول الله ﷺ، وكان علماؤنا قديماً يقولون في صدق وإخلاص:

«ما نحن فيمن سبقنا إلا كبقل في أصول نخل طوال».



ولكن المضمار لا يزال واسعًا رحيبًا، يتنافس فيه المتنافسون،فإذا قمنا الآن – بتوفيق الله – لنحمل اللواء الذي حملوه، ولنزاول نفس المهمة التي سبقونا إليها بإحسان، فإننا نبلغ بفضل الله تلك المنازل العلا، إذا تعهدنا إيماننا بالتجديد والترشيد، وأصلحنا أنفسنا لقيادة البشرية إلى طريق الله تعالى، كما قادوها أول مرة.

بل إن النبي ﷺ كان يرسل لنا البشريات عبر الزمان لتدفع بهمتنا وعزيمتنا نحو الآفاق العليا:

حدثهم ﷺ يوماً عن منازل أهل الجنة فقال:

«إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري، الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، فقالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلي والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» [1] .

هكذا على الإطلاق، في أي زمن أو ظرف، من الصحابة رضي الله عنهم، أو من بعدهم إلى يوم القيامة.

ويحدثهم ﷺ يوماً بأمر غاية في العجب لما يمكن أن يصل إليه الإيمان فيقول لهم: **«لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال – أو رجل- من هؤلاء»** [2].

يعني سلمان الفارسي وقومه الذين كان إسلامهم غيبًا عند نزول الآية الكريمة في المدينة ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الجمعة: ٣].

بل إن رسول الله ﷺ ليجعل للذين اتبعوهم بإحسان مزية أخرى لتعادل السبق، أو تزيد عليه أحياناً، إذا أتقنوا الإيمان وأحسنوا العمل، فقد سُئل ﷺ: هل

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري في التفسير (سورة الجمعة) .



من قوم أعظم منا أجرًا؟

قال: «...... قوم بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين، يؤمنون به، ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرا ..» [1].

لقد كان لأصحاب النبي ﷺ المزية العظمي بالسبق.

ولكن ليسوا بهذه وحدها قد بلغوا الدرجات العلا.

وإنما لأنهم آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين..

ولأنهم كانوا كما قال الله عز وجل عنهم: **﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾** [المؤمنون:٦٢].

لقد جعل الله تعالى رسوله قدوة عالية، وأسوة حسنة رفيعة، وحث المؤمنين على حسن التأسي به ﷺ، والتسابق في مضماره الرحيب.

ولقد فاتك – يا بني – النظر إلى نقطة البدء في هذا المضمار، وهم لم يخطئوها، بل حفظوها، ثم تجاوزوها، وهذا فارق ما بيننا وبينهم في الحقيقة.

لقد كانوا يقيسون الأمور بعكس ما نقول أو نفعل نحن في زماننا.

إن دراسة السيرة النبوية، وحياة الصحابة أمر غاية في اللزوم لأصحاب الدعوات، إذا أرادوا أن يأخذوا خير عبرة، وأجل قدوة. حين قالوا (آمنا)، صدقوا العزمة، فانطلقوا في تحقيق العبودية لله تعالى، وأصبحت تشيع فيهم (ظاهرة) الإقبال على العبادات، خاصة الصلاة وتدبر القرآن، والإقبال على الأعمال خاصة الجهاد والاستشهاد في سبيل الله عز وجل.

---

(١) انظر عدة روايات في تفسير ابن كثير في أول سورة البقرة : الآية: ٣.

الوسطية العظمى:

وقد كانوا أحياناً يصلون في ذلك إلى درجة (الغلو) أو (الإفراط) فيسارع المربي الأكرم ﷺ بردّهم إلى **القصد والاعتدال في أعلى درجاته، أي إلى (وسطية) الإسلام القائمة على العزائم العالية، لا القائمة على مجرد (المتوسط) الحسابي الذي يمكن أن تتسلل إليه الرخص الجافية، والحيل البالية.**

ونحن نقرأ في السير والسنن عجائب ذلك:

١- تشاور جماعة من السابقين الأولين- رضي الله عنهم أجمعين- منهم عثمان بن مظعون، وعبد الله من مسعود، وأرادوا أن يجدّوا في العبادة، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا جملة، فذهب وفد منهم إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ليلتزموها باعتباره المثل الأعلى في البشر ﷺ «**فلما أخبروا كأنهم تقالّوها**»، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا.

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ جاءهم فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا، وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكن أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(متفق عليه).

٢- زوّج عمرو بن العاص ابنه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وكان شابًا فتيًا، فدخل عمرو يوماً فسألها عن زوجها، فقالت: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشًا، ولم يكشف لنا كنفًا منذ أتيناه، لأنه يصوم النهار، ويقوم الليل دائما، فأخبر عمرو رسول الله ﷺ، فأحضره النبي ﷺ، وعلمه القصد في العبادة، وانتهي به بعد المفاوضة إلى أن يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأن يختم في سبعة أيام، وأن يصلى من الليل وينام.

ونبّه إلى الحقوق المطلوبة منه مع العبادة، إنّ لبدنك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقًا، وأن لزورك عليك حقًا.... [1].

٣- دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: **ما هذا الحبل؟** قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي ﷺ: «**حلّوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد**» متفق عليه من حديث أنس ﷺ.

٤- وعن جويرية أم المؤمنين أن رسول الله خرج من عندها بكرة حين صلي الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعدما أضحى وهي جالسة فقال: **مازلت على الحال التي فارقتك عليها؟** قلت: نعم، فقال النبي ﷺ: «**لقد قلت بعدك أربع كلمات (ثلاث مرات) لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته**» رواه مسلم وغيره.

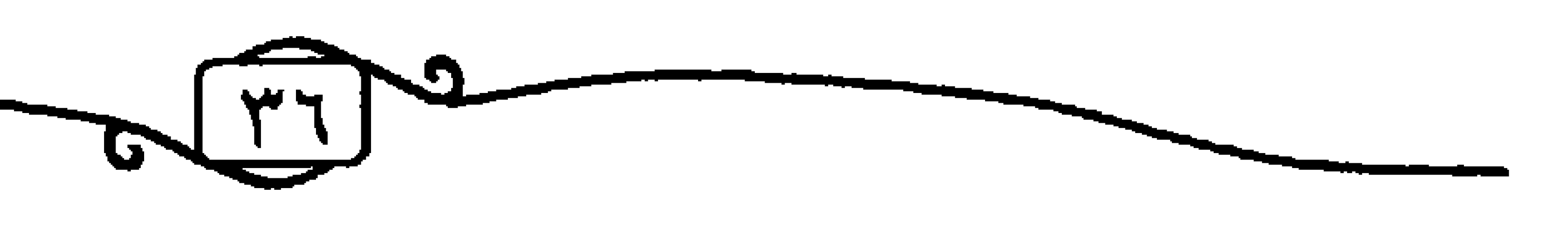
فهؤلاء- رجالا ونساء- قد أخذوا الكتاب بقوة، وارتقوا إلى عزائم الأمور، وكان رسول الله ﷺ يردهم إلى **الاعتدال الذي بعث به، ليس اعتدال الترخص والتحايل،** إنما اعتدال الروابي العالية، والقمم السامية، التي يجتهدون في الصعود إليها، باختيارهم، شوقا إلى رضوان الله والجنة.

ومع هذه العزائم المتأججة في نفوس الصحابة رضي الله عنهم، كان ﷺ يرضي من الأعرابي (بالفرائض) لا يزيد عليها، إذ لكل وضعه، ولكل مقام مقال. وكلٌ يعمل على شاكلته.

فهؤلاء طلائع الدعوة، وعماد الحق في الأرض، وأئمة التغيير والقيادة.

وهذا أعرابي من غمار الناس، بحسبه- في باديته- أن يؤدي الفرائض، ويعقد قلبه على التوحيد مبرأ من دنس الشرك!

(١) زورك: أي ضيفك، ولهذه القصة روايات كثيرة في الصحيحين وغيرهما.



فانظر- يابني- من أنت؟ ومع من تريد أن تكون؟ وماذا تريد في هذه الأرض الآن؟!

لا تيأسوا من روح الله:

قال الفتي في انفعال حائر، وتأثر ظاهر:

هل من أجل هذا التقصير طالت محنة المسلمين المعاصرين وتمادى بهم الطريق؟! حتى تداعى عليهم أعداؤهم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها كما في الحديث الشريف؟ وانتهي بهم الحال إلى تعطيل شرائع الإسلام في كل مجال؟!

وقال فتيان آخران:

إذا كان هذا المستوي العالى هو المطلوب لإقامة الإسلام في هذا الزمان، فقد بعدت الشقة، ولا أمل ولو بعد قرون؟!!

قال الشيخ في أسي:

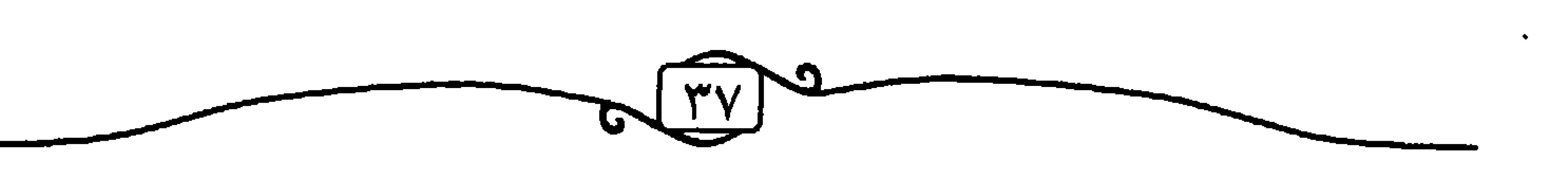
سبحان الله ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [سورة الحجر:٥٦].

نحن نتكلم عما هو مطلوب منا، أما المقادير فدعوها لربها ومولاها، هو أعلم بنا من أنفسنا، وأرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا، وأحني علينا من الأقربين المحبين، وهو يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص: ٦٨].

ولكني أريد أن يتنبه دعاة الإسلام المعاصرون لخطوة المهمة التي يحملونها، وثقل التبعة التي في اعناقهم:

من هم؟ أمة تتكون بالإسلام، لتكون نواة للبعث العالمي المرتقب بإذن الله!!

ولا يمكن للعالم كله أن يستقر على حضارة صالحة إلا إذا صلح المسلمون، ليأخذوا بيد البشرية العانية!!



فهل نعى ما هو كائن إذا ضعفت البذرة، أو عطبت النواة، أو فسدت الطليعة «والرائد لا يكذب أهله»؟!

إن الإسلاميين هم رأس الحربة في صدر الجاهلية العالمية، وفي وجه الإفساد الهادر، وماذا تفعل بحربة ثلم حدها، أو برد سنها؟!

ولقد أهاب بهم الرجل الصالح- رحمه الله- [1] من أول الطريق يقول: «**إذا وُجد المؤمن الصحيح وجدت معه أسباب النجاح**»!

«ميدانكم الأول أنفسكم فإن قدرتم عليها كنتم على ما سواها أقدر ....»!

وقال الرجل الناصح رحمه الله [2]: (**أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم على أرضكم**)!

هل علمتم أيها الأحباب: أي شهوات ضارية متبرجة، انبثت في حقبة من تاريخ الأرض المكتوب كما هي اليوم؟!

السلطان الطاغى، والمجد الزائف، والمال الحرام، والمرأة المتبرجة تبرج الجاهلية الأولى، والفجور المنظم، والكفر العالمى المجهز بالجدل، والكذب، والإلحاد، والمدعم بأفتك الأسلحة وأدوات الدمار، والمبرمج بمناهج ومعاهد ومدارس فائقة الزيف، يقوم عليها شياطين الإنس والجن، وتحرسها أمم ودول، وعروش وجيوش، ليطفئوا نور الله في الأرض؟!

فإذا لم يكن المؤمنون في نور الوحي الغامر، وإذا لم تكن لهم أوثق الصلات بالمحراب، وبالعبادة والانقياد، ليستنزلوا بذلك مدد الرحمن الرحيم، وليكافئوا الفجوة الهائلة التي بيننا وبين الشياطين، وإذا لم يمعنوا في إيثار الآخرة ....

---

(١) هو الشيخ حسن البنا رحمه الله.

(٢) هو الأستاذ حسن الهضيبى رحمه الله.



إذا لم يكونوا كذلك تطايروا شعاعا، أو هباء أمام أعاصير الشهوات والملذات والشبهات، والخدع، والأكاذيب المزخرفة، أو تفسخت عزائمهم تحت وطأة الفتن والمحن العاتية!!

وكم رأينا على طول الطريق من رجال أخلدوا إلى الأرض، واستسلموا في نشوة قاتلة، لعبيق الشهوات العارضة، والملذات الناعمة حين عرضت لهم، وناوشت قلوبهم، وتسللت إليها من ثغرات لم يحكموا إغلاقها بمعونة الله العلي الأعلي، فخروا من سمائهم العالية، وتخطفتهم الطيور الجارحة، أو هوت بهم ريح الضلالة إلى دنيا مؤثرة، فهلكوا في أودية شتي: كوادى السلطة والوزارة، أو وادى المرأة والفنون، أو المنزلة الاجتماعية الموهومة، أو الألقاب المزعومة، أو المال والمتاع، الذي ازدهر ثم اندثر، وأصبح هشيمًا تذروه الرياح!!

قال الفتي في أسي: ولا زلت أذكر ما قصصت علينا قديماً من أحوال بعضهم، وأنه كان عابدا ذاكرا شديد الإخلاص فيما يرى الناس، ثم مدّ عينيه إلى زهرة الحياة الدنيا، فكانت الفتنة، كبيت الشاعر الذي حفظته منك:

ومن تضحك الدنيا إليه فيغترر ... يمت كقتيل الغيد بالبسمات

قال الشيخ في ضراعة:

أسال الله العظيم لى ولكم العافية وحسن الخاتمة، فإن ما نحن فيه من امتحان باهظ، وابتلاء شديد لهو أهون بما لا يُقاس من فتن الدنيا المهلكة، والتي تسلل بها الشيطان إلى القلوب في غفلة منها، أو في نوبة عجب أو إعجاب من أهلها ... وليس شيء يحفظ العبد في هذا المجال مثل فضل الله عليه أوّلاً، ثم دخوله إلى ربه من باب الإفلاس المحض، والفقر الصرف، والانكسار والإخبات والذل، واطراح المغريات المهلكات وراء ظهره، تعلقا بالواحد الأحد، مالك الأسباب والمسببات جميعاً!!

وهذا موطن لابد أن تتلفت له الأسماع والأبصار، لتقبل على عبادة الله تعالى، والاعتناء فيها بالكيف والوصف والإحسان، أكثر من الاهتمام بمجرد الصور والأشكال.

العبادة والإحسان:

والعبادة– كما تعلمون– هي أقصي غايات الخضوع لله رب العالمين، وتقوم على (الحب) للمنعم المتفضل، (والذل) للقاهر المتفرد، سبحانه وتعالى. فيكون الخضوع بالأمرين، خضوعا فريدا يليق برب العزة والجلال، ويحقق مقام (الإحسان) الذي جاء في حديث جبريل عليه السلام.

فتكون العبادة الحقة نتيجة إحساس القلب والنفس بكثرة النعم التي تغمر العبد، وتفيض من حوله، (وطالما استعبد الإنسانَ إحسانٌ). والله تعالى هو المنعم المتفضل في كل حركة وسكون، ومن ثم فهو المستوجب منا عبادة الحب والشكران.

ومن الجانب الآخر تكون العبادة خوفًا ورهبة، وكلما غمرت كيان العبد، واستشعر ضعفه، وفقره، وحاجته، اتجه قلبه إلى خالقه ومولاه في يسر وسكينة، لا يجد الأمان إلا في حماه، وفضله، ورحمته، وتتساقط دعاوي المنّ بالعبادة، بل في كل ركعة يلوذ بربه ليقبلها، وفي كل صدقة يدعو مولاه أن يرفعها، وفي كل تعب أو نصب في سبيل الحق والخير يذوب في شعور غامر بأن لربه ومولاه المن عليه إذ وفقه للخير، وأقامه في هذا المقام، واختاره من بين الملايين ليكون من أهل هذا الشرف الجليل، ولو شاء لاستبدل بك غيرك ولا معقب لحكمه، ولو أراد لنزع عنك عزمك، وحال بينك وبين قلبك، ولو شاء لرد عليك عملك، فنحن جميعاً بفضله ومنه، وعطائه ورحمته، وفيضه ومشيئته ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة ياسين: ٨٣].

ولقد كانت هذه الحقائق البدهية تشرق في قلوب الصالحين فتجدهم يهتفون بما جاء في الأثر(يارب ماذا وجد من فقدك؟ وماذا فقد من وجدك؟!). كما قدمنا!!

وقد قص الله تعالى علينا كيف كان هذا الإخبات المنيب هو دأب الرسل عليهم السلام، وأتباعهم رضي الله عنهم في كل العصور؟ وكيف كان هذا الشعور الغامر يغشاهم وهم صافون في الميدان، تحت بوارق السيوف، وقوارع الخطر:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ۝وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

[سورة آل عمران ١٤٦، ١٤٧].

وانظر كيف جعلوا النصر آخر دعائهم، وقدموا عليه اعتذارهم عن ذنوبهم، وإسرافهم في أمرهم.

ولم يَرِدْ عليهم ذلك الخاطر المفزع: أنه ما دام عدوهم كافرا محادًّا لله ولدينه فالنصر عليه مضمون، مفروغ منه....

كلا.... إن الأمر كله لله رب العالمين.

ولابد أن ينتصروا- أوّلاً- على أنفسهم، وأن يعبِّدوها لربهم ومولاهم، كي تجرى من خلالهم سنة الله الصادقة في استخلاف الصالحين لوراثة الأرض، وليتحقق بهم وفيهم الوعد الإلهي الجليل **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾** [محمد:٧].

وقد جعل الله تعالى لهذه العبادة المخبتة الخاشعة شعائر، تبرز في الواقع من خلالها، وتزكو وتنمو بمتابعة الامتثال لها ومن ذلك:

الصـــلاة:

ففي البدء كانت (المحاريب) .. قام فيها الأنبياء والمرسلون، ودأب فيها الصالحون والمجاهدون، وجالت فيها القلوب، وعرجت في سبحات نورها الأرواح، وربى رسول الله في رحابها السابقين الأولين من كتائب الإسلام.

قال الفتي: قرأت أن (المحاريب) أمر محدث في الإسلام، لم يكن في الصدر الأول من الصحابة رضي الله عنهم، وأنه بدعة ....إلخ

قال الشيخ:

رُسُومى أنت – يابني – لا تزال تشغلك الصور والأشكال، فانفذ دائما إلى لباب الأشياء، ولا تتعلق بالأسماء، وقد قيل ما قرأت، ولكنك تقرأ في القرآن الكريم نسبة المحراب والمحاريب إلى المرسلين والصالحين، كنبي الله داود، وسليمان، وزكريا، ومريم الصديقة كما قال تعالى: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا.....**﴾ [سورة آل عمران:٣٧] .

ويقول عن عبده الرسول الكريم زكريا: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ**﴾ [سورة آل عمران:٣٩].

و(المحراب) ليس بالضرورة ذلك (التجويف) في حائط القبلة، وإنما هو مكان التعبد والخلوة، الذي تصفّ فيه قدميك بين يدي مولاك (تحارب) هواك، وتجالد شيطانك، وتغالب أكدار الطين والتراب في كيانك، لتخلص روحك من أثقال المادة، فتحلق في أنوارها الأصيلة، حيث الملأ الأعلى، وحملة العرش، والحافون به، والطائفون حوله يسبحون بحمد ربهم، ويذكرون جلاله وعظمته.

ولذلك كانت (الصلاة) تسمي: المعراج الأصغر، وكان النبي ﷺ يكثر منها، ويحسنها ويتمها، ويطيلها حتى تتورم قدماه من طول القيام، ويربي أصحابه على

هذا بطرق كثيرة، حتى كانوا يزاولونها وهم في فرح وسرور نفسي غامر، شأن من يؤدي شكر نعمة فاضت عليه، وليس كشأن من يؤدى ضريبة باهظة تثقله وتنهكه، ولذلك يقول ﷺ لمن طالبه براحة جسمه قليلا لأنه غُفر له كل شيء: **«أفلا أحب أن أكون عبد شكوراً»**[1]؟

قال أحدهم: قرأت في الصحيح أن أعرابيا سأل النبي ﷺ عن (الفرائض) فبينها له، فقال الأعرابى: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص ومضي إلى قومه، فقال ﷺ: **«أفلح إن صدق»**[2]. فهذا وما سبقه كلاهما مأثور؟!

قال الشيخ: عدت كصاحبك إلى الرسوم والأشكال، وعهدي بكم جميعا على غير هذا النمط الذي يشيع في بعض الكسالي، أو بعض المتعالمين من غير فقه بصير، وكلاهما من سوءات الأمم والجماعات فاحذروهما!!

مع من تريد أن تكون؟

إن ربك العليم الخبير شرع هذا الدين ليتناسب مع كل مكلف ابتداء من الأعرابى، الذي أقسم على التزام الفرائض في بيئة البادية التي لا تحفل بصلاة ولا زكاة ولا صيام، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

وانتهاء بالأعلام الكرام الدين يحرصون على تتبع النبي ﷺ في أفقه العالى، ومضماره الرحيب.

وبين النوعين بون شاسع، ومراتب متصاعدة يتنافس فيها المتنافسون، **«والمرء مع من أحب»**[3] يوم القيامة، فانظر مع من تريد أن تكون؟!

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها واللفظ للبخاري.

(٢) رواه البخاري في أواخر كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه من حديث أبي موسي الأشعري مرفوعا.

* أو لم تقرأ في الصحيح أيضا، أن أبا فراس ربيعة بن كعب الأسلمي خادم رسول الله ﷺ وكان يأتيه بوضوئه وحاجته، فقال له النبي ﷺ يوما: «سلني»، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال ﷺ: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»(١).

فهذا رجل من فقراء المسلمين، ومن أهل الصفة، تطلّع إلى ذروة المرتقي، فتعجب النبي ﷺ من همته التي لم يرد غيرها، فأمّله ﷺ في واسع فضل الله تعالى، إذا لزم كثرة الصلاة، والسجود.

* وهذا بلال بن رباح العبد الحبشي، الذي أعتقه أبو بكر رضي الله عنهما، فانظر إلى همته العالية، وما بلغه بها من منازل الخير ﷺ حين سأله النبي ﷺ قال:

يابلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دفّ نعليك بين يدي في الجنة؟

قال بلال: ما علمت عملاً أرجى عندى من أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي (٢).

* وهذا عبد الله بن عمر وكان غلاما حدثا صغيرا، فرأي رؤيا أفزعته، فقصها على أخته حفصة زوج النبي ﷺ، فسألت عنها رسول الله ﷺ، فقال ﷺ جملة موجزة: «**نِعْم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**»!!

وكانت هذه الإشارة فوق الكفاية، فما ترك عبد الله قيام الليل بعدها، أو كما قال سالم ابنه وهو يروي هذا: «فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلا» (٣).

والأخبار والآثار في هذا كثيرة، وقد ذكرنا أصحها وأشهرها.

---

(١) رواه مسلم
(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة واللفظ للبخاري.
(٣) متفق عليه من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه.

فانظروا إلى أى حد بلغت همة الإيمان، وعزمة الإسلام في الصدور والواقع؟! من الفقراء والموالى، ومن الغلمان والنساء، فكيف بمن فوقهم في المنزلة، والعلم، والإيمان؟!

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤] .

حادثة مزعجة وآثارها:

قال الفتي:

كأنك -يا مولانا- تريد التلميح إلى الأمر المؤسف، الذى وقع فيه بعضنا، حين صلوا جماعة عند (التلفاز) ليتابعوا كرة القدم، وتخلفوا عن صلاة الجماعة في المسجد القريب؟!

لقد بكيت طويلا حين علمت بذلك، وقلت في نفسي: فماذا ستفعل بنا الدنيا لو خرجنا إلى لهوها؟!

قال الشيخ:

العبرة -يا بُني- بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وما وقع هو بلاء فادح، خاصة إذا تابعنا تسلسل الأحداث، ولكننا الآن نتجاوز ذلك إلى أخذ العبرة، بالتذكير، والتأصيل العلمى، والدعوة إلى التوبة النصوح، فإذا استجيب لنا كان ما وقع خيرًا لنا، لأننا تعلمنا، ورجعنا من قريب، ويتوب الله على من تاب، وهو الغفور الرحيم!!

وإن تكن الأخري -ونعوذ بالله منها- فليس بكاؤنا على أفراد نرجو لهم الهداية، وإنما بكاؤنا على (الهدف) الكبير الذي فقدناه، أو تواري خلف الغبار!!

ثم على (الطلائع) التي تذوب في أدنى امتحان، وعلى (الأمل) العزيز الذي يلفّه الضباب، وحتى يأتي جيل آخر، يمتحن مرة أخرى، والله تعالى أعلم بالغيب

المجهول، وهو سبحانه وتعالى أملنا الأعظم من قبل ومن بعد.

ثم غلبت الشيخ عاطفته الإسلامية، وجاشت نفسه بالبكاء، فلم يتمالك حتى بكى، وأبكى من حوله!!

هذا القرآن فأين البكاء؟

قال الشيخ بعد أن تماسك قليلا:

لو لم نبكِ على حالنا لكنا دون (النائحة المستأجرة)، وإن طريقنا هذا لابد أن يمتلئ بالدموع، والأشواك، والأحزان، حتى يفضي بنا إلى دار السرور بعد الصبر الطويل، حيث لا أحزان ولا أوجاع، بإذن الله.

رأى أبو سليمان الداراني في منامه رسول الله ﷺ، فأوصاه بحفظ القرآن الكريم، وتدبره، ففعل، ثم رأي النبي ﷺ بعد ذلك في منامه فأقبل نحوه فرحا يقول:

يارسول الله قد فعلت ما أمرتني به، جمعت القرآن كله.

فقال: يا أبا سليمان، هذا القرآن، فأين البكاء؟!

ثم عاد الشيخ إلى أصل الموضوع ....

واستأنف الحديث الطويل الذي كان يتحدث فيه!

هذه الصلاة، ذلك المشهد العملي اليومي المتكرر، والذي يتهيأ العبد فيه لمناجاة ربه ومولاه، فيحس بالرَّوْح والسكينة، ولو أقبل العبد المؤمن عليها كما ينبغي- بروح المحب المخبت، المنيب اللائذ برضا مولاه، العائذ من سخطه – لما أحب أن ينصرف منها، لما يغمره فيها من الرحمات والبركات والرضوان، فكيف إذا كان هذا

العبد هاربا إليها من لفح الطغيان، وضغط الواقع، وضراوة الفتن التي تلاحقه، وتضغط عليه، وتود لو ردته عن إيمانه، ليهيم على وجهه في أودية الضلال؟!

إن الصلاة- حينئذ - تكون الملجأ، والمفزع، والمستقر، الذي يأوي العبد فيه إلى كنف ربه ومولاه، ليأخذ لنفسه مَدَدًا متجددا، يواجه به صراع الحياة، وضراوة الأحقاد!!

وقد أحسن الرواة حين رووا لنا صفات النبي ﷺ من كل جوانبها، وفيها «كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»[1].

وكان يقول عند الكرب: «قم فأرحنا بها يا بلال»[2] يعني إقامة الصلاة.

ولا نظن شيئًا من هذه المعاني الجليلة يبقي عند من يأخذ الصلاة مأخذ المتعجل بها، غير المتهيئ لها، أو غير المتهيب لجلالها، ولعظمة الرب المعبود جل شأنه.

ولعل هذا هو سبب شكوي كثير من المسلمين أنهم لا يذوقون حلاوة الصلاة، ولا يجدون لها تأثيرا في نفوسهم.

ولكن أعجب العجب أن يكون هذا حال الطلائع المؤمنة، التي تحمل الإسلام للناس في غربته الشاملة، والتي ينبغي لها أن تكون صورته المثلي بين الناس، بأقوالهم، وأفعالهم، وأحوالهم!!

ونعوذ بالله أن تكون هذه الطلائع فتنة للناس، فلا تنتفع في ذاتها، ولا تنفع غيرها، بل قد تضر وتؤذي!!

وفي الأثر: **«مثل المؤمن الذى لا يتم صلاته كمثل المرأة التي حملت، حتى إذا دنا نفاسها أسقطت، فلا حامل ولا ذات رضاع، ومثل المصلي كمثل التاجر لا يخلص له**

---

(١) رواه أحمد وأبو داود من حديث حذيفة ﷺ.

(٢) رواه أحمد في مسنده، وأبو داود (في الأدب، باب في صلاة العتمة...).

الربح حتى يخلص له رأس المال، وكذلك المصلى لايقبل الله له نافلة حتى يؤدي الفريضة»[1].

ومن السنن الجليلة التي تعين العبد على إحسان صلاته تأمل الآيات الكريمة، والتجاوب مع معانيها، وكان رسول الله ﷺ إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح ونزّه، وإذا مرّ بآية رحمة سأل ودعا، وإذا مرّ بآية عذاب استجار واستغفر [2]، وإذا مرّ بآية أمر حقق ذلك، فإذا قرأ قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال : سبحان ربي الأعلي[3]، وإذا جاء استفهام أجاب عليه، فيقول إذا اقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [سورة التين:٨].

يقول ﷺ: بلي وأنا على ذلك من الشاهدين.

وليتفكر المؤمن وهو في صلاته يقرأ (الفاتحة) كيف أن ربه ومولاه يراه، ويسمعه، ويعقب على قراءته بأعظم وأكرم ما يتمناه.

وفي الحديث القدسى يقول رب العزة والجلال:

«قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدى نصفين ولعبدى ماسأل... فإذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين)، قال الله تعالى: حمدني عبدى،

فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال: أثني عليّ عبدى.

فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، قال: مجّدني عبدى.

---

(١) ذكر هذا الإمام ابن القيم في كتابه (إعلام الموقعين) تحت عنوان: أمثال ضربها صاحب الشرع جـ١ ص٢٣٦ هكذا وقال موسى بن عبيدة، عن ماعز بن سويد العرجي، عن على بن أبى طالب أن النبي ﷺ قال:

(٢) هذا معنى حديث طويل رواه مسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ورواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[1]

فإذا تفكر العبد في نفسه وهو ذرة بالغة الصغر، محبوسة في نطاق هذه الأرض، التي هي بدورها كأنها ذرة في فضاء رحيب حولها، ثم هو- مع هذه الضآلة - تتجاوب أصداء صوته بالقرآن في الملأ الأعلي، وما فوق ذلك، ويجيبه رب العزة على قراءته، فأي شعور علوي؟ وأي فضل رباني؟ وأي فيض إلهي يغشاه في هذه اللحظات؟ وأي سعادة غامرة تملأ جوانبه فيحز راكعًا، وساجدًا، يعظم ربه ومولاه، ويستمد منه القوة، والعزة، ويستشعر في رحابه الأمن والسكينة؟!

ومن نافلة القول، أن يكون كل شيء بحسابه الصحيح، فصلاة الجماعة الجهرية غير الصلاة التي يجب فيها الإسرار، وفي صلاة الليل والنوافل الكثيرة، والسنن الراتبة مندوحة لمن أراد التطويل، والتحسين، وفي السنة المنقولة عن النبي ﷺ وأصحابه، ما فيه الشفاء والكفاية لمن أراد ذروة الخير والهداية.

قال الفتي: صلي بنا الفجر إمام عنبرنا[2] فأطال وأجاد، ولكن اعترض بعضهم، واحتجوا بالأحاديث الصحيحة المشهورة في تخفيف الصلاة، وقال الإمام: أنتم هنا في سفر طويل[3]، وقد فرغتم من مشاغل الحياة، وليست ظروفكم كمن قال فيهم رسول الله ﷺ بالتخفيف، وكانوا في عمل شاق لمعاشهم، وفي حر شديد!

وهذه فرصة العمر لكم أن تقتدوا بالرجال الكبار في صلاتهم وعبادتهم خاصة

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) المراد غرفة كبيرة في السجن تتسع لنحو ثلاثين سجينا أو أكثر.

(٣) المراد بالسفر هنا: السجن.

صلاة الفجر..... وقال آخرون: اختلف الزمان، ولم ننشأ مثلهم في الخشونة والصحراء، رضي الله عنهم، وثار نقاش فقهي...؟!

عجائب النفس البشرية:

قال الشيخ وهو بين الرضا والأسى:

أرى -يا أحبابي- أن للمسألة وجها آخر، يحتاج إلى نظر، ذلك لأن الله عز وجل أودع في كيان الإنسان من الطاقات والقدرات ما يذهل ويدهش، وأن القلب إذا أحب ورغب حمل الجوارح على فعل العجائب، وربما فجر فيه الخوف أيضا عزمًا غير معهود في العادات.

ولقد كانت من أعظم مهمات الرسل عليهم السلام: تحرير العقل والقلب من تفاهات الاهتمامات، وتحريك فطرة الإنسان إلى الخير الفردي والجماعي، وتأجيج روحه من داخله ليتغير إلى أحسن أحواله باسم الله، وبمعونته، فإذا هو كائن جديد، يتوثب حبًا لله، وبغضًا لما يكرهه. وشوقا لما أمر به، ونفورًا عما نهى عنه.

وقد غير النبي ﷺ أصحابه من أعماق قلوبهم، وليس من القشرة السطحية، لذلك انطلقوا بعد ذلك إلى الآفاق العلا بقوة ويسر، وتحولوا من نقائض الجاهلية إلى معالم الإسلام، وهذا متكرر مع كل واحد منهم تقريبا، واقرأ تاريخهم من أمثال مصعب من عمير ﷺ، وكيف تحول من أترف فتي في قريش، إلى ذلك المجاهد العظيم، الذي يحمل لواء التوحيد في معركة أحد، ثم يقتل شهيدا في تجرد هائل **«وعليه نَمِرَة إن غطوا بها رأسه بدت رجلاه، وأن غطوا بهارجليه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه، وأن نجعل على رجليه شيئا من الإذخر.. »**[1].

وبهذه الهيئة مضي إلى ربه عز وجل، صابرًا محتسبًا، فرحًا مسرورًا، ويالها من

---

(١) رواه الجماعة إلا ابن ماجه.

ركضة إلى الفردوس الأعلى، بفضل الله تعالى.

ويغير هذا الحب لله عز وجل، وللجزاء الأوفى الذي وعد به، يصعب فهم الأحداث، بل يصعب صنع الأحداث جملة، ويصعب فهم القصص والروايات التي جاءت عن النبي ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم.

لقد صلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة في ركعة واحدة بالسور الثلاث الطوال «البقرة، والنساء، وآل عمران»[1]، وكان فوق السابعة والخمسين من عمره الشريف، وليس عنده من أدوات الترفه والتسلية ما يخفف عنه شظف الحياة، ومع اشتغاله اليومي الدائب بتدبير مصالح المسلمين، في الحرب والسلم، وفي العسر واليسر ......إلخ.

وعلي هذا النمط صلى أبو بكر ﷺ عنه الفجر بسورة البقرة، وهو خليفة فوق الستين من عمره، ولم يكن خليّ البال، بل كان في عنقه تدبير أمر جيوش الإسلام بعد الردة العارمة في جزيرة العرب، وبعد أن التحمت جنوده بجيوش كسري وقيصر، على امتداد رقعة واسعة من العراق والشام...

وكذلك صلى عمر ﷺ الفجر بسورتي يوسف والنحل .... وهو أشد مشغلة، وأفدح حملا... وكان وراءهما في المسجد الضعيف والمريض وذو الحاجة.

وكان رسول الله ﷺ كما رووا (يأمرنا بالتخفيف، ويؤمُّنا بالصافات) لأن القلوب مجهزة، والنفوس تزكت، فصار البدن بعد ذلك مطواعا، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤].

والمسألة لا تتعلق بظواهر الأشياء بل ببواطنها وأعماقها.

---

(١) رواه مسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

فإذا تربي المسلم على (حب) العبادة، وعلى (حب) الرب المعبود، وعلى حب الجزاء الموعود، هانت عليه العبادة وإن طالت، وخفت عليه وإن ثقلت بعض أجزائها: كحرارة الصيف في الصيام، وبوارق السيوف في الجهاد، وطول القيام في التهجد.

وهذا يفسر لكم أن بعض الناس قد يكون قوي الجسم، صحيح البدن، خليّ البال، ثم هو مسلم صحيح الدين غير منافق، ومع ذلك **تجده متبرما في صلاته، قليل الصبر عليها، ضائقا بعبادته كلما مست ترفه، أوراحته، أو ما يهواه مهما كان تافها، وما ترك الجماعة من أجل الكرة ببعيد!!**

ومثل هذا يحتاج إلى مراجعة نفسه، وتجديد إيمانه، وجهاد موصول ودأب بالغ لإصلاح داخله من أعماقه، حتى يعتدل شأنه كله، ولا يستقيم الظل والعود أعوج، وكفى بقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد:١١].

قال الفتي: لقد ذكرتنا- يامولانا - بما كدنا ننساه، وجددت إحساسنا بأن مهمتنا ثقيلة خطيرة، وأن معاركنا مع الجاهلية العالمية شاقة وضارية، تحتاج إلى معونة الله دائما، وإلى مدد روحي غامر ....، لكن مع تطاول المحن قد تفتر الهمم، وتتضاءل العزائم، فكيف ندفع هذا عن أنفسنا جميعا؟!

صراع العزائم والمَلَل:

قال الشيخ: صدقت يا بني ...وهذه قضيتنا الملحة التي لا ينبغي أن تغيب عنا، ولا أن نملّ من البحث عن سبل الهداية فيها وإليها.

وابتداء فمن كانت همته مولاه، فهو حي لايموت ولا يفوت، وهو شهيد لا يغيب، وحاضر يرى ويسمع كل شيء.

ولكن الإنسان ينسي، وتتسلل إلى قلبه الغفلات والشهوات، والوساوس،

وعلى المسلم أن يكافح هذا بحبه الغامر لربه ومولاه، وأشواقه الدافقة إلى فضله وفيضه، وبذلك تكون (الْـمَلَّة) سريعة عابرة، لا بطيئة جاثمة، وينبغي أن تكون فردية محدودة، لا جماعية ممدودة، لأن الران إذا طال غطي البصيرة، وإذا عم وشاع قتل العزائم، وخذل الهمم، فاندلعت الخطايا تلتهم القيم!!.

إن الفرد إذا ملّ أو تعب، أو مسه طائف من الشيطان فخرج إلى إخوانه، ورأي ما هم فيه من خير وإقبال، تجدد إيمانه، وعاودته همته، ونشطت مكامن الخير فيه، والعكس صحيح، لأن الطباع تأخذ من الطباع وهي تدري أو لا تدري، والنفوس تتشرب مما حولها عمداً أو انطباعاً، وفي الحديث تشبيه بليغ يقرر الأمرين يقول ﷺ:

«إنما مثل الجليس الصالح، وجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير. فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا منتنة» متفق عليه من حديث أبي موسي الأشعري.

في الحديث أيضا: **«المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»**[1] ولا تصاحب إلا من تذكرك رؤيته بالله وبالدار الآخرة.

مقاومة الْمَلَل والفتور:

لقد علم الله تعالى أن الإنسان ينسي!

وتدخل عليه الملّة والسآمة من جهات شتي!

لذلك كان القرآن العظيم يتنزل نجومًا للوقاية والعلاج، حتى مع هذه الطلائع الجليلة التي حملت الإسلام في فجره الأول، حين تعرضوا للمحن المتلاحقة، وطال

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعا.

بهم الطريق أكثر مما قدروا أو توقعوا، وتسرب إلى قلوبهم الملل البشرى المعهود، فأنزل الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦] .

وهذا ذروة (العتاب) الإلهي للمؤمنين على تباطؤ الأداء، وتسرب الملل إلى القلوب، في وقت مبكر من دخولهم الإسلام، قال ابن مسعود ﷺ وهو من السابقين الأولين:

«ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى بهذه الآية إلا أربع سنين» رواه مسلم وغيره، ولعله يقصد الهجرة.

ويقدر ابن عباس رضي الله عنهما المدة ابتداء من نزول القرآن بنحو ثلاث عشرة سنة والمعني:

أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم الخشوع اللائق بجلال ربهم، وبما نيط بأعناقهم من مهمة عظمي لإنقاذ الناس؟! وأعظم ما يجدد لهم هذا الخشوع هو ذكر الله تعالى، وتدبر ما نزل من الحق في القرآن العظيم!

إن الله تعالى لم يجعل البشر معصومين من الأخطاء أو الخطايا.

بل خلقهم قابلين للترقي أو التدني، وندب المؤمنين دائما إلى التوبة، وحسن الأوبة، والمسارعة إلى التذكرة عند العثرات، وحنيئذ يبصرون طريقهم المستقيم، ويتابعون الترقي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾

[الأعراف:٢٠١].

وهؤلاء (المتقون) هم أيضا الذين يقول الله تعالى فيهم:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ۝أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

[آل عمران: ٣٥، ٣٦].

ولنتأمل كلمات الله العظيم، وحثه على الاستغفار، وعدم الإصرار على الذنب، ووعده الكريم بالمغفرة، والخلود في الجنات، وأي جزاء أو عطاء هذا الذي أثنى عليه رب العالمين، وخصه بالمدح الجليل؟!

المقياس الجامع:

يقول الشيخ:

قد طال بنا الطريق، وقد ظننتها جلسة، فإذا هي تمتد، وتتداعى فيها التذكرة بعد التذكرة، وهذا خير ساقنا الله تعالى إليه، ولنعد الآن لما وعدنا به أولاً من بيان (**المقياس**) الذي يقاس به الجهد المبذول في (**تجديد الإيمان**)، فمن وجد خيرًا فليحمد الله عز وجل، وليضاعف لربه الشكران والثناء.

ومن وجد غير ذلك، فالرب غفور كريم، والتوبة معروضة دائمًا، ويده مبسوطة بالليل والنهار، والجواد إذا كبا نهض مسرعًا، واستأنف الركض بعزم جديد.

والمقاييس كثيرة، منها: كثرة الذكر والدعاء، ومنها: التلاوة والتدبر، ومنها: شرح الصدر وحلاوة العبادة، ومنها: إيثار السر على العلانية إلا لغرض شرعي...

ولو أردنا مقياسًا جامعًا ينتظمها جميعا لكان: (**المسارعة في الخيرات**) وهو مقياس قرآني جليل، قرره القرآن وكرره، ودعا المؤمنين إليه، وحرضهم عليه،

وشوقه لهم بشتى الصيغ والأساليب.

قال تعالى آمرًا عباده المؤمنين ومشوقًا لهم:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وجمع بين المسارعة والمسابقة فقال تعالى في مدح المؤمنين:

﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

ودعا سبحانه وتعالى عباده إلى التسابق والتنافس في هذا المضمار الأطيب فقال تعالى:

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وقال جل شأنه: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال جل جلاله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

والمعنى الجامع: لكل هذا هو (المسارعة)، (والمسابقة)، (والمماثلة)، (والمنافسة) في ضروب الخيرات.

فمن عزم على (تجديد الإيمان) فمقياسه الذي لا يخطئ هو هذه المعاني.

فإن وجد نفسه وقلبه وعزمه في هذا الجانب كان ذلك دليلا على التوفيق،

وعمارة الباطن، وتزكية النفس، ومعاينة الآخرة، وحصاد الفضل، وغنيمة الأجر والرضوان.

وإن وجد ثقلاً وانغلاقًا وتعثرًا في هذا الجانب كان ذلك نذيرًا بأن في القلب غبشًا، أو ذنوبًا، أو وسوسة، أو رانًا والعياذ بالله تعالى، وفي أقل الأحوال يكون في القلب غفلة.

وهذا تذكرة للإنسان قبل السقوط، كالأجراس المحذرة، أو الأصوات المنذرة!!

ومن فضل الله تعالى أن يكون هذا (المقياس) في أيدينا، لينبه كلاً منا إلى الخلل الذي تسرب إلى أعماقه التي لا يراها، ليسارع بالإصلاح قبل أن يتسع الخرق، أو يندلع الشر والعياذ بالله تعالى.

تحذير:

وينبغي هنا أن نأخذ الحذر والحيطة حين نريد تطبيق هذا المقياس على غيرنا بعينه، فإننا لا ندري بواطن الناس، ولا أعذارهم، والله وحده هو العليم بالسرائر، ما لم يتكلم الإنسان أو يعمل شيئًا محددًا فيكون الحكم عليه بما أظهر، وإلا وقعنا في أمراض خطيرة، من أمراض القلوب، مثل (سوء الظن)، أو (التجسس) أو (الغيبة)، وقد نهى الله تعالى عنها بأعيانها!!

نماذج عملية:

قال الفتى: هل من أمثلة عملية لهذا المقياس لأعرض نفسي عليها؟!

قال الشيخ: دعك من خصوصك الآن، ولنذكر نماذج عامة لا يقصد بها أحد بعينه، فإن ذلك أنفى للحرج، وأسلم للصدور، ثم ليطبق كل منا على نفسه فيما بينه وبين الله العليم الخبير.

ومن الأعاجيب أن يفتح ربنا ﷻ أبواب الخير على مصاريعها لنا، ثم نتثاقل عنها، مع أنها قد لا تكلف مالا ولا جهدًا، وهذه ظاهرة تحيرني في بعض الناس، ولا أجد لها تفسيرًا ظاهرًا، إلا أن يكون انعدام التوفيق، ومن ذلك:

- **إلقاء السلام:** كم يؤلف من قلوب؟ وكم يكلف من جهود؟ وما ثواب صاحبه؟ وما ظن تاركه بخسارته في اليوم الواحد؟ لو احتسب الحسنة الواحدة بدينار، وهي خير من ملء الأرض ذهبًا؟!

- **صلاة الجماعة:** أي شاغل، وتحت أي ظرف – إلا لعذر شرعي – يتأخر المسلم عنها؟ وهي تعدل صلاة الفرد بسبعة وعشرين ضعفًا؟!

- **الخطا إلى المساجد:** كيف يتكاسل عنها مسلم، مع أن له في كل خطوة درجة ترفع، وخطيئة تحط[1].

وانظر إلى الأنصاري كيف كان ﷺ يحسب الأمور **بميزان الإيمان**، وربما كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ثم انظر ما بشره به رسول الله ﷺ: فعن أبي بن كعب ﷺ قال: كان رجل من الأنصار لا أعلم أحدًا أبعد من المسجد منه، وكانت لا تخطئه صلاة، فقيل له: لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء، وفي الرمضاء؟!!

قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي؛ فقال رسول الله ﷺ: **«قد جمع الله لك ذلك كله»** رواه مسلم.

فهذا حساب رجل مؤمن، يوقن بكلام الله ورسوله من أعماق نفسه، ويوقن بالقيامة كأنها رأى العين، ولمس اليد، ولذلك أخذ كلمات الوحي مأخذ الجد، ورتب حياته وواقعه على هذا اليقين!!

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

ولم يكن هذا شيئًا نادرًا فريدًا في أمة الإسلام يومئذ، بل كان ذلك هو المناخ السائد في حياتهم المباركة رضي الله عنهم أجمعين:

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:

خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فسألهم، فقالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك.

فقال: «يا بني سَلِمة ديارَكم تُكْتَب آثاركم... فقالوا: ما يسرنا أنا كنا تحولنا»(١).

• **الصف الأول في المسجد**، وخاصة ميامن الصفوف، والعجب أن يدخل المسلم إلى المسجد، ويجده خاليًا، ثم يجلس في المؤخرة، مع ما جاء في السنن من فضائل لا تحصى جزاء هذا العمل اليسير!

لقد سألت نفسي حين رأيت البعض يفعل ذلك، هل يجهل الأحكام؟ أو أن الآخرة ليست في الحسبان؟! هل ينظر هذا إلى صحائفه والأجر يتقلص منها باختياره؟!

هل يعلم كم من الحسرات سيغشاه عندما تتكشف الأمور؟!!.

وفي الحديث عن سمرة مرفوعًا: **«احضروا الجمعة، وادنوا من الإمام، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتى يؤخر في الجنة إن دخلها»**.(٢)

وهكذا في كل العبادات، والطاعات، وحتى المباحات ذلك الكنز الثمين من الأجر والثواب، بالنية والاحتساب.

كيف يطيق مسلم، تخالط قلبه بشاشة الإيمان، أن يضيع الألوف من الحسنات، على مدار الدقائق والساعات، فكيف بالشهور والسنوات؟!

---

(١) رواه مسلم بأطول من هذا، وروى البخاري معناه عن أنس رضي الله عنهما جميعا.

(٢) رواه أحمد وأبو داود، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في السنن.

وساوس شيطانية:

سيقول الشيطان الرجيم موسوسًا كفحيح الأفاعي:

هذه نافلة، وتلك فضيلة غير واجبة، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها!!

أنت مريض! أو أنت مجهد! وأنت في بيت المظالم[1]، ويكفيك هذا! حافظ على صحتك لتجاهد أعداء دينك! خذ حظّك من الراحة، إن لبدنك عليك حقًا...!!

وهكذا يمضي بالمؤمن، يخدعه بالباطل، أو بكلمة حق يراد بها باطل، ويفتح له أبواب الفلسفات، والتأويلات في كل الأوقات... ويظل يقول له: أنت... أنت... ويصبّ في أعماقه الفتور والقصور، ويرميه بالتواني والأماني، ويحبب إليه العجز والكسل، ويقعده عن علو الهمة، ومعالي الأمور، ويغرقه في التوافه والسفاسف!!

ويالله للمسلمين!!!

فأي كنز من الخير يسرقه عدو الله من المؤمنين؟!

ولو أخذ العبد بالأسباب، وتوكل على الملك الوهاب، لفتح له الأبواب، ولأفاض عليه من توفيقه وفضله ما يقهر به كل شيطان، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥،٦٦].

وفي الحديث: «**الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله**»[2].

ترى هذا النائم يتقلب طول الليل في فراشه بلا ملل، أيقهر شيطانه بلا عزيمة أو معونة؟!

---

(١) المراد: السجن.

(٢) رواه الترمذي عن شداد بن أوس ﷺ، وقال: حديث حسن.

ولو قال لنفسه ولشيطانه: مكانكما، فأنتما عندي متهمان كاذبان، وإن الله عز شأنه أصدق منكما، وأرحم بنا، وأنصح لنا.

ولو قال لهما: والله لا أكون كما جاء في الأثر:

(إن الله يكره أن يكون أحدكم من الليل جيفة)!!

ولو قال لنفسه: قومي أيتها الغافلة، فإن تحت التراب نوما ثقيلا، وأن رسول الله ﷺ أحيا الليل إلى أن اشتكت قدماه الضر، وتفطرت وتورمت من الجهد، وهو الذي غفر له، فكيف بي أنا المذنب المغرور، الواقف على الشاطئ البعيد، أرجو الفردوس بلا جهد، وأطلب الجنة بلا بذل؟!

لو فعل هذا وأمثاله ستصحو - إن شاء الله - عزيمته، وتتوثب همته، ويتجدد إيمانه بفضل من الله ورحمة!!

قال الفتى: أليس (للسفر) الطويل[1] ظروفه وتأثيراته، التي قد تشفع في بعض التقصير؟! أو يقع ثوابها العظيم معادلاً للفتور والتراخي؟!

قال الشيخ:

قوَّى الله عزمي وعزمكم يا أحبابي، فإن «الجنة لا خطر لها» ومن طلبها فهذا ثمنها، وهو قليل ضئيل لا يقارن بساعة منها، فكيف بحياة الأبد؟! في روح وريحان ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ومهما تكن الآراء في متاعب (السفر) فإنها محنة نسأل الله تعالى أن يحفظ لنا أجرها، وأن يرزقنا جميعًا العفو والعافية من كل بلاء.

---

(١) السفر الطويل مراد به: السجن.



الحكمة العليا وراء السفر:

لكن ينبغي أن نشكر الله ﷻ على فضله وسابغ حكمته، فقد سلك بنا من خلال هذا (السفر) مسالك الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ومسالك أتباعهم والدعاة إلى هذا الحق المبين.

وبهذا (السفر) الطويل عصمنا من أن نحمل شيئًا من أوزار الهزيمة الماحقة، التي منيت بها أمتنا أمام القردة والخنازير من بقايا بني إسرائيل!!

إن الجميع قد صفقوا للطاغية الحقود، وقرعوا له الطبول، ونفخوا له المزامير تمجيدًا للطغيان، وصغارا بين يديه، فذهبوا معه بعار الهزيمة وأوزارها، ومن أفلت من حساب الدنيا، فإن الآخرة حق: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

ألم يكن هذا (السفر) شرفا لنا، وسترًا ووقاية؟!

ألم يكن فضلا من الله، ورحمة، وحكمة حتى يأذن بالفرج القريب، كما قال عن إخواننا من قبل ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

يوشك هذا (السفر) أن ينحسر -بإذن الله وفضله ومنه وحده لا شريك له- والقضية هي (الحصاد)؛ فهل تتصورون حاصدًا لا يجني إلا الشوك، أو يخرج من كدّه بغير ثمار؟!

فلينظر كل منا صحيفته في هذا الشأن الخطير؟!

وليستغفر كل منا ربه فيما مضى من التقصير، وليغتنم الأيام الباقية، (بالباقيات الصالحات) فهي كما قال ربنا: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

أجهش الفتى وإخوانه بالبكاء، فبكى الشيخ معهم، وساد صمت طويل.

مؤثر..ثم دارت أحاديث وأحاديث... عن الوقت الذي ضاع... وعن الاستغراق في قراءة الصحف والمجلات التي تحمل السم الزعاف لأمتنا، ثم تسللت إلى أفهام بعض الدعاة ليدمنوها، وليجعلوا منها مشغلة حياتهم في هذا (السفر) فضيعوا بها وردهم القرآني، وضيعوا فرصة العمر في تعلم بعض العلوم الشرعية الضرورية... وتوهموا أن (الثقافة) تبني الرجال في هذا المعترك الضنك.. ثم تكشفت الأيام عن زيف الأماني والأوهام: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

من نحن؟!

قال الشيخ في تأكيد بالغ:

نحن- يا أحبابي- دعوة ربانية إسلامية، قرآنية، محمدية التطبيق والسمات، صحابية التكوين والصفات!!

(نحن قوم أعزنا الله تعالى بالإسلام فمهما ابتغينا العز في غيره أذلنا الله) كما قال عمر بن الخطاب ﷺ حين عبر المخاضة حافيا، ليتسلم (القدس) الشريف بعد أن ساخت أقدام الدول العظمة يومئذ، على وهج إيمان هؤلاء الفقراء، وعلى حرارة يقينهم المتفرد برب العزة والجلال!!

فإذا لم نجدد إيماننا، وإذا فرطنا في حقائق الحق من ديننا، فنخشى أن ينقطع عنا مدد الرحمن، وحينئذ تتخطفنا الذئاب الراصدة، والكلاب الرابضة، وتبطل آثارنا بما نقول نحن من الزور، والعياذ بالله تعالى.

وقد حذرنا الله تعالى من هذا المصير الموحش فقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۞ حُنَفَاءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا

خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

إن العبرة في الدعوات الكبرى ليست بالمحن القاسية، فقد يجعلها الله تعالى (منحًا) هادية!

وليست العبرة بالسنين الغلاظ التي نقضيها في هذه الأسفار، وإنما العبرة بآثار ذلك علينا، وبفضل الله الذي يأخذ بأيدينا ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾[النور: ٢١].

ولا يكون ذلك أبدا إلا إذا رابطنا على هذا الحق الرباني، وتمثلناه ظاهرًا وباطنًا، ولم تصرفنا عنه العقبات الشداد، فإن الكون كله بيد الله الواحد القهار، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾[النور: ٤٠].

واعلموا أيها الأحباب: أن طريق الدعوات محفوف بالعقبات والأهواء، فكم من دعوات نجت، ونجحت بفضل الله ورحمته!

وكم من أفهام عميت، وكم من أقدام زلت، وكم من جماعات ضلت، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!!

فلابد -دائمًا- من التفكر والحساب!

ولابد- دائمًا- من تجديد الإيمان والإحسان!

ولابد- دائمًا-من اللياذ والعياذ بالله ﷻ، والتوجه إليه بالدعاء والرجاء!.

لقي النبي ﷺ يومًا معاذ بن جبل ﷺ، فشبك يده الشريفة بيد معاذ، وقال: «يا معاذ: والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»[1].

---

(١) رواه أبو داود، والنسائي، وابن حبان في الصحيح.

قال الفتى: ما أعظم هذه الوصية النبوية، وما أجمل أن يقسم النبي ﷺ لشاب من أحداث أصحابه أنه يحبه!!

قال الشيخ: أنها لملاحظة موفقة منك، فأي فتى إيمانًا كان معاذ بن جبل ﵁ حتى بلغ هذا المرتقى؟!

وأي مُرَبٍّ في العالمين بلغ مبلغ المصطفى ﷺ في خلقه العظيم؟!

وساد الصمت، وأطرق الجميع إجلالاً للمعاني العالية، وبدا الشيخ كعادته يحاول أن يدقق الألفاظ قبل أن ينطق بها، إذا كانت تتعلق بالله ﷻ أو بشيء من صفاته العلا!!

يحبهم ويحبونه:

قال الشيخ في تؤدة:

إن هناك حبًا أعظم من ذلك وأجل بما لا يقاس، وهو حب الله تعالى لعباده المؤمنين الطائعين، والقرآن الكريم مستفيض في بيان هذا، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ١٢٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وأضاف الشيخ:

فإذا فعلنا ما يحب ربنا أحاطنا بحبه وتوفيقه، وفضله وإكرامه، وتمكينه ونصره، وذلك هو الفوز العظيم.

وإذا أخلدنا إلى الأرض، وفرطنا في حمل أمانة الإسلام، فلن يتوقف الكون، ولن يتعطل الدين، وإنما ستمضي سنة الله تعالى (بالاستبدال)، ويقيض الله تعالى لدينه جيلاً جديدا يحمله، وأول صفاتهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، ومنها تتوالى صفاتهم الموفقة، وذلك وعد الله الحق الذي يتكرر في كل العصور بإذن الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وتأملو كيف قدم سبحانه محبته لهم على كل ما بعدها، لأنها محبة (اجتباء)، نالوها بمحض فضل الله ﷻ، فهي منحة هبة وتوفيق، تأتي قبل أعمالهم وكسبهم، بل إن أعمالهم وكسبهم الطيب ينبعان منها، ويمتدان ببركاتها، لأن الله ﷻ يريدهم لبعث دينه.

يقول بعض المحققين من أئمة التفسير: (اجتباء الله تعالى العبد، تخصيصه إياه بفيض إلهي، يتحصل منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد ابتداء.

وذلك كالأنبياء عليهم السلام، وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء).

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع عديدة مثل قوله تعالى عقب ذكر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧].

وقوله تعالى عقب ذكر أولى العزم من الرسل عليهم السلام، والمؤمنين الذين

يقيمون الدين: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

(فالاجتباء) هبة ربانية بلا جهد من العبد، لأنها لا تنال بذلك مهما بذل العبد.

(والهداية) هبة ربانية قد ينالها العبد بالبذل، والتقوى، ومكافأة له على جهده وعمله.. والله أعلم.

وإنما ذكرنا ذلك لنعلم أن دعوة الله تعالى ستمضي إلى غايتها، وأن الله تعالى ناصر دينه، ومظهره على الأديان كلها، بنا أو بغيرنا، بِمنَح الْقَدَر، أو بجهود البشر، والسعيد من وفقه الله تعالى في الحالين، وتقبل منه في كل حال.

مسك الختام سؤال وجواب:

ثم أراد الشيخ أن يؤكد هذه المعاني في قلوب إخوانه، وأن يقرر بها الأهداف التربوية العظمى التي قصد إليها في جوانبها الفردية، والجماعية، والدعوية فقال في بشاشة:

لقد سألتموني- يا أحبابي- طويلاً، فهل لي أن أسألكم سؤال الختام؟ إذا خُيرّ أحدنا بين أن يحب الله تعالى ذاته، أو يحب أعماله فأيهما يختار؟!

قال الفتى وقد أشرقت أسارير وجهه بسبحات من نور الإجلال لربه ومولاه:

وهل في ذلك خيار يا مولانا؟!! إن كل شيء ينمحي في الحس والخاطر، إذا رفع رب العالمين خسيسة عبده، لتكون محلا لهذا الشرف الأرفع!!

قال الشيخ وقد سره الجواب:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الْهَمَل!!

قال أحدثهم سنًّا: زدني إيضاحًا جزاك ا لله خيرًا.

قال الشيخ: سبحان الله، لقد حفظت معنا قديما الحديث القدسي من رواية

البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمْعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه».

ولعلك تذكر – يا أخي – أن هذه المعاني تحمل على الوجه اللائق بجلال ربنا، وعظمته كما قررنا ذلك في حينه.

والذي أريده هنا أن الحديث الشريف ذكر نوعين من حبّ الله ﷻ:

الأول: حبّه للفرائض والأعمال التي تؤدي.

الثاني: حبه لذات العبد، إذا انهمك في أداء النوافل بعد الفرائض، وواظب على ذلك، ودأب في تحري أبواب الخير، وتسابق في مضمارها الرحيب.

فإن أدركته (الفترة)، تداركته الصحوة!

وإن غشيته كدرة الطين أحيانًا، انتفضت الروح في كيانه، شوقًا إلى الملأ الأعلى، فينهض من عثرته مسرعًا منيبًا لربه ومولاه!!

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾

[الصافات: ٦٠، ٦١].

* * *

قصة هذا الكتاب

الحقائق والتاريخ!

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فهذا الكتاب تذكرة ونصيحة خالصة للمؤمنين والمؤمنات، الجادين في طلب الآخرة، المؤملين فيما فوق ذلك من محبة الله عز وجلّ، ورضوانه الجليل.

وهذه آفاق عالية ييسرها الله تعالى لمن آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، والتزموا حقائق الحق، وأنوار الوحي، وتاريخ الصدق، وما بين ذلك من شرف النيات، والأقوال، والأفعال!!

قصة طويلة:

إنها قصة طويلة متشعبة، نذكر منها- بإيجاز- معالم الأشياء، وقد نطوي منها بعض الأجزاء، أو نترك بعضها لفطنة القراء، فما كل ما يعرف يقال، ولا كل ما يقال قد جاء وقته، ولا كل ما جاء وقته يحسن قوله، حفاظًا على الأشياء والأحياء، في معركة مشبوبة، لا يزال يصطلي بحرّها المؤمنون والمؤمنات في كل مكان!!

وتحتاج قراءة هذه الصفحات إلى صبر، وأناة، وطول انتباه، فهي للجادين فقط!!

ولا بد من تتبع القصة ابتداء من أصولها الأولى، تحريرا للفهم والمعاني، وتحديدا للحقائق والمباني، وإدراكًا للمسائل والقضايا على وجهها الصحيح، حين تؤخذ بنظرة كلية شاملة، يكون كل شيء منها في مرتبته وقدْره:

أولاً: الله رب العالمين:

فهو سبحانه وتعالى رب الكون ومليكه، وهو الخالق المتفرد، والمالك المدبر، وهو الحي القيوم، والإله الواحد الأحد، المعبود بحق في السموات والأرض، قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، وهو الحكيم الخبير، وهو الهادي لجميع خلقه، يحيي ويميت وإليه النشور، القائم على كل نفس بما كسبت، والمجازي لها بما عملت، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١].

وهذا هو المدخل التأسيسي لكل شيء بعده، وأحق حقائق اليقين في هذا الوجود جميعًا، كما قال ﷻ في إيجاز وإعجاز: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد: ٣].

ثانيًا: الإسلام دين الله عزوجل:

وقد شرعه الله تعالى لعباده لتحقيق عبوديتهم له تعالى، ولذلك فهو قضية وجودنا ومصيرنا، وأساس سعادتنا في الدنيا والآخرة، به أرسل رسله عليهم السلام، وبه أنزل كتبه الهادية، وجعله دينه المتفرد: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقضى قضاء مبرمًا أنه لا يقبل في الدارين غيره: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[آل عمران: ٨٥].

ثالثًا: دين شامل لا يتجزأ:

ولما بعث الله به رسوله الخاتم محمدًا ﷺ، جعل له معجزة كبرى هي القرآن الكريم، وجعلها ممدودة موصولة إلى يوم الدين، وضمّن الإسلام من خصائص السعة والشمول ما يجعله حجة على عباده إلى آخر الدهر، وأحكمه سبحانه وتعالى على غاية الكمال والتمام، في الكيف والكم، أو في الصفات والأعداد، لذلك خصنا

الله سبحانه وتعالى بأشرف شهادة حين رضيه لنا دينًا فقال:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا...﴾[المائدة: ٣].

وقد فرض الله تعالى على المؤمنين أن يجعلوا هذا الدين نظامًا شاملاً لكل شئون الحياة، في الفرد، والمجتمع، والأمة، والدولة، والحكومة، فجاهد النبي ﷺ وأصحابه حتى حققوا أمر ربهم ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى: ١٣].

وتجنبوا تحذيره الصارم من تبعيضه أو تجزئة أحكامه كما قال تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾[المائدة: ٤٩].

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ...﴾[البقرة: ٨٥].

وقد ظلت أمة الإسلام ودولته ظاهرين في الأرض عدة قرون، إذْ صدقهم الله تعالى وعده، فاستخلفهم في الأرض، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وبدّلهم من بعد خوفهم أمنًا، وساق لهم رزقهم رغدًا من كل مكان.

رابعًا: سنة الله فى المخالفين:

فلما خالف المسلمون ربهم، وغيرّوا وبدلوا في دينهم حقت فيهم سنة الله الصارمة، ولاقوا الجزاء الحتم الذي سبق به نذير الله ﷺ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وعبر قرون شاع فيهم الجدل، وقَلّ العمل، واستشرى الظلم والفساد، والقهر والاستبداد، وسوء الاعتقاد، وخراب الأخلاق... حتى انتهى بهم إلى التفرق، والتخلف، والضياع، وحينئذ وثب الكفار إلى قيادة الحضارة البشرية، وتمددوا في أرض المسلمين وسلطانهم، وأذاقوا المخالفين أبشع الذل والاستعباد، واستباحوا

الأموال، والدماء، والأعراض..!!

ولكن أشنع جناياتهم كانت على (الإسلام) ذاته، لأنه دين الأمة، ومصدر القوة والعزة، وما ذل المسلمون إلا بتفريطهم فيه، لذلك عمد الكفار إلى الكيد الصريح له، بتعطيل أحكامه، وتبديل شريعته، وإفساد نظامه، وإسقاط بقايا دولته وهيبته في القلوب والنفوس، ثم في الواقع والتعامل!!

وتأكيدًا لهذا التغيير ربّوا (طبقات بديلة) على مناهجهم ومفاهيمهم، ومكنوا لها في قلب أمتها، أثناء احتلالهم الطويل لبلادنا، وجعلوها امتدادا لهم في حضورهم، ثم خلفاء سوء لهم إذا اضطروا للرحيل يوما ما!!

خامسًا: أمة جديدة من بين الحطام:

ولقد هب المسلمون في كل مكان للمقاومة والدفاع عن بلادهم وموروثاتهم، تحت وطأة الهزائم والمظالم التي جلبتها الغارة الصليبية المعاصرة، ولكن توزعتهم مفاهيم وافدة، وأفكار متضاربة، من الوطنية، والقومية، والعلمانية، والشيوعية، وتقليد النمط الأوربي بكل مباذله ومفاسده، وكان الزعماء يلجأون إلى الإسلام لبث الحمية في صدور الجماهير، فإذا كسبوا الجولة قادوا الناس إلى نمط أوربي فاسد، وطاردوا الإسلام ودعاته!!

ولذلك طالت المعارك بيننا وبين أعدائنا، واشتد الفساد والإفساد في ظل الأنظمة (الوطنية) المفرغة من الإسلام، وأصبحت الأمة الإسلامية أوزاعًا متلاطمة، بلا هوية ولا دليل، بل أصبحت أشد أمم الأرض ضياعًا، وهوانًا، وتخلفًا، مصداقًا لقوله الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] مع أنها كانت بالإسلام ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولذلك تنبه الزعماء الإسلاميون من أول الطريق إلى مكمن الداء، ومصدر

البلاء، وهو (الإعراض) عن الإسلام في كل شئون الحياة!!، ومن ثم اتجهوا بكل طاقاتهم لتربية الأمة من جديد على معايير الإسلام، وجاهدوا جهادًا كبيرًا لاستخلاص العناصر المؤمنة، والسهر الطويل على تزكيتها وتربيتها، باعتبار ذلك الطريق المتفرد إلى دين الله عز وجل، والسبيل الوحيد لعودة الإسلام كُلاً لا يتجزأ، وبقيت الحكومات، وكثير من المؤسسات مستعصية على ذلك، أو متشبثة بما رباهم عليه الكفار من أضاليل القول والعمل!!

وهذا سر الخلاف الهائل، والقلق الدائم في جنبات العالم الإسلامي كله الآن بين:

١- الدعاة إلى الإسلام الشامل، دين الله، وهوية الأمة، وقضية وجودها ومصيرها!!

٢- وأصحاب النمط الغريب الوافد من وراء البحار بشتى اتجاهاته وضلالاته!

ولا يمكن للأمة الإسلامية التخلص من بلائها الوافد، أو دائها التاريخي - المجلوب عليها بالغارة الصليبية المعاصرة- إلا إذا حسمت أمرها حسمًا قاطعًا، وعادت إلى الإسلام نظامًا شاملاً جامعًا، واستأنفت مهمتها في الأرض دعوة وبلاغًا للعالمين.

لذلك كانت التربية، والإعداد، وفق **حقائق الإسلام، ومعايير القرآن**، هي قضية حياة أو موت، وصراع بقاء أو فناء، ومعركة وجود ومصير، وما يترتب على ذلك من شقاوة الأبد، أو سعادة الدارين!!

سادسًا: التربية للطلائع أولى وأوجب:

وإذا كان هذا شأن التربية لجمهور الأمة، فإنها بالنسبة للطلائع الإسلامية التي سلكت هذا الطريق عن رضا واقتناع أولى وأوجب، بل هي (فريضة) بموجب

العبودية لله رب العالمين، والاتباع لرسوله الأمين ﷺ.

ثم هي (ضرورة) حتمية لتعادل ضخامة الهدف الكبير الذي يريدونه، ولتوازن طراوة المتع والشهوات في طريقهم، وضراوة المحن والفتن التي تواجههم، ومن أجل ذلك قص الله تعالى أنباء الرسل عليهم السلام، وأصحابهم الذين تبعوهم بإحسان، ونصب رسوله محمدًا ﷺ وأصحابه أسوة عملية، وقدوة حسنة للمؤمنين إلى يوم القيامة، في إيمانهم الفذ، وأخلاقهم الزكية، وصبرهم الجميل، وجهادهم النبيل، وإخلاصهم في العبودية، وحسن مراقبتهم لربهم ومولاهم، وإيثارهم الآخرة على زهرة الدنيا، كل ذلك كان بتوفيق الله ﷻ، وطول التربية والتزكية.

وعلى الطلائع الإسلامية أن تعى هذه الحقائق وعي اليقين، وأنها لا تمكَّن في الأرض إلا إذا نجحت نجاحًا وثيقًا في هذه التربية الإيمانية والأخلاقية، لأن البناء الكبير لا يقوم إلا على أساس وطيد، وأعمدة شداد، وإلا انهار البناء بأهله، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦].

لقد ابتُلي المؤمنون - في كل العصور - بمحن عاتية تخلع الجبال والقلوب، وكانت هذه سنته تعالى في تربية المؤمنين، وتمحيصهم، والتدرج بهم في مدارج التزكية والاكتمال، ولم يكن هذا الجانب - على مرارته - هو مصدر الخطر الأكبر عليهم، وإنما كان الخطر الماحق يقع إذا خفت التربية، أو تضاءلت التزكية، أو تكدر الإخلاص والتقوى والعبودية لله في أنفسهم، أو رثّ الإيمان في قلوبهم ولم يجتهدوا في تجديده، وزيادته، حتى صار وراثة جامدة، وحينئذ تتساقط الهمم على طول الطريق، وتتفسخ العزائم، وتخبو أنوار المراقبة والإحسان، فلا يبقى من الرجال الكبار إلا أشباح هزيلة في نهاية الطريق، لا تستطيع أن تقيم أمة نظيفة، ولا أن تؤسس دولة شريفة، ولا أن تحقق شريعة الله في العدل والإنصاف بين الناس، بعد

أن عجزت عن إقامتها في القلوب، والنفوس والرؤوس!!

درس رباني قرآني عجيب:

وهو من أجل وأعظم دروس التربية الربانية للعباد.

وقد سجله الله في كتابه المحفوظ إشعارًا بخطره وجلاله، وليظل نموذجا معروضا على قلوب المؤمنين وعقولهم إلى آخر الدهر.

فإن السابقين الأولين كانوا مُثلا عليا في الإيمان والإسلام، ولكن البشر تدركهم أحيانًا الغفلة والنسيان، أو الملل والفتور، أو صدأ القلوب، فيندلع الخلل والقصور إلى النيات الباطنة، أو الأقوال والأعمال الظاهرة!!

وفي غمار الخطر الداهم تغلب اليقظة، وتقل الغفلة، وهذا ما كان سائدًا طوال العهد المكي، حيث التعذيب، والتكذيب، والمطاردة والمصادرة!!

فلما حدثت الهجرة، وقع تحول وتغير هائل:

فقد وجد المسلمون أمان الدار، ومحبة الأنصار، بعد العداوة الطافحة من أكابر مجرمي قريش، وقد ذكرهم الله تعالى بذلك في كتابه:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وكان المتوقع أن يزداد المهاجرون شكرًا لله، وثناء عليه، وخضوعًا لجلاله العظيم، وهو سبحانه أهل لذلك وزيادة، والمسلمون المهاجرون أولى الناس بشكر المنعم المتفضل على فضله العظيم!!

ولكن حدث شيء نفسي عجيب:

لم تتوهج القلوب بنور الإيمان بالقدر الذي يناسب المناسبة العظمى!!

حدث استرخاء في العزائم، وتباطؤ في الأداء، وهبوط في حرارة الشوق والإشراق!!

إنه دبيب نفسي تسلل إلى الصدور، وقد علمه الله تعالى على حقيقته الخطيرة، لذلك عاجلهم بالعتاب، والتذكرة، والعلاج، قال تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الحديد: ١٦، ١٧].

المعاني الباهرة:

والآيتان الكريمتان- على وجازتهما- تحملان قدرًا عظيمًا من جلائل المعاني، والتوجيهات الإلهية، المعجزة المتعددة، وقد استفاض المفسرون في بيانهما:

يقال: (أنى) الأمر يأنى أنيا: إذا جاء وقته، وحان حينه، والخشوع: السكون والطمأنينة، ولا تكون في القلب إلا بحب الله، والذل له، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح، والمعنى: ألم يأت الوقت الذي تخشع فيه قلوب المؤمنين وتطمئن لتذكر الله المنعم المتفضل، والقوي القاهر، الذي أنزل عليهم الحق المتفرد؟ فيسارعوا إلى الامتثال عن رضا وإيمان، من غير توان ولا فتور؟!

وجواب المؤمنين والمؤمنات أن يقولوا: بلى يا رب قد آن وحان، ووجب لك ذلك في كل زمان، فاغفر لنا الخطأ والنسيان.

والروايات في شأن هذه القصة متعددة:

* فقد روى أن المؤمنين كانوا مجدبين بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق

والنعمة، ففتروا عما كانوا عليه من الخشوع، فنزلت.

* وعن ابن مسعود ﷺ: ما كان بين (إسلامنا) وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين.

والآية مدنية بالإجماع، ولعل المقصود (هجرتنا) بدل (إسلامنا)، للجمع بينها وبين الرواية التالية:

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن الكريم[1].

وهذا العتاب علاج للقضية من جذورها الغائرة، بإصلاح القلب الذي تتبعه الجوارح، وإسلامه لله رب العالمين بالخضوع له في ذاته، وبالانقياد لشريعته المحددة ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ فيلتقي الأمران، ويتعاونان على الصلاح والإصلاح، ولا يقبلان الانفصال بعد ذلك أبدا، وإلا هامت القلوب في أودية الظنون، أو ذابت النصوص في أودية الإهمال والتعطيل!!

والدليل على ذلك قائم شاخص في تاريخ أهل الكتاب، حين وقع هذا الانفصال فيهم، وطال عليهم الأمد في ذلك، وألفوا الباطل، فقست قلوبهم، وأسلمهم ذلك إلى الفسوق والمروق من دين الله ﷻ!!

وقد أجاد وأفاد في ذلك سيد قطب ﷺ، وأنزله منازل الصديقين والشهداء من عباده، يقول في أول سورة الحديد:

«هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة المسلمة كي تحقق في ذاتها حقيقة إيمانها، هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله، فلا تضن عليها بشيء،... لا

---

(١) انظر في معنى الآيتين الكريمتين تفسير ابن كثير، وتفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقي، وتفسير في ظلال القرآن.



الأرواح ولا الأموال، ولا خلجات القلوب، ولا ذوات الصدور.

وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض، موازينها هي موازين الله، والقيم التي تعتز بها، وتسابق إليها، هي القيم التي تثقل في هذه الموازين، كما أنها هي الحقيقة التي تشعر القلوب بحقيقة الله، وتخشع لذكره، وترجف وتفر من كل عائق... يعوقها عن الفرار إليه».

ثم يقول في معنى الآيتين الكريمتين:

«إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم، واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله...

عتاب فيه الود، وفيه الحض، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله، والخشوع لذكره، وتلقي ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق، من الروعة والخشية، والطاعة والاستسلام، مع رائحة التنديد والاستبطاء في السؤال...

وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ، والتقاعس عن الاستجابة، وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ، حين يمتد بها الزمن بدون جلاء، وما تنتهي إليه من القسوة بعد اللين، حين تغفل عن ذكر الله، وحين لا تخشع للحق: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾**

[الحديد: ١٦].

وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج!!

إن هذا القلب البشري سريع التّقلب، سريع النسيان، وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور... فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر، تبلد وقسا، وانطمست إشراقته، وأظلم وأعتم!!

فلابد من تذكير هذا القلب... ولابد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه ا لتبلد والقساوة.

ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد.. فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة... فالله يحيي الأرض بعد موتها.. وكذلك القلوب حين يشاء الله.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

وفي هذا القرآن ما يحيي القلوب كما تحيا الأرض...»

الثغرة الخطيرة:

لقد تزامن هذا العتاب الإلهي مع مطلع العهد المدني.

ولهذا دلالة خطيرة، وحكمة بالغة، لأنهم يومئذ يقيمون دولة وحكومة، وهذا- في دنيا الناس- يعني السلطان الآمر، والقوة الحاكمة، والزهرة الفاتنة، فإذا لم تكن لدى رجالها قلوب خاشعة، وشريعة ناصعة، هلكوا وأهلكوا، وطاشوا كالفراش الأحمق حين يتساقط في لهب النار يحسبه نورًا أو ضياء!!

إن السلطان المجرد يغري بالطغيان، والقوة المطلقة تغري بالاستبداد، والزهرة الفاتنة تغري بالفساد والإفساد!!

والمعصوم من عصمه الله بالرسالة ﷺ، أو من وفقهم الله لقلب خشوع، تقي، موصول بربه ومولاه، وهم هؤلاء المؤمنون الذين تعهدهم الله ﷻ بهذا العتاب والتربية الإيمانية العميقة، وبهذا جردهم الله تعالى من نوازغ العدوان بين يدي السلطان، وحماهم من الوحش الكاسر الكامن في نفس كل إنسان، إلا من اتقى الله وبر وصدق.

واقرأوا التاريخ الطويل:

كم من دول وحكومات سادت ثم بادت وهي تخوض في مظالم الدماء،

والأعراض، والأموال، والحكم بغير ما أنزل الله، وكانت آفتها دائما من فساد القلوب، وانعدام الإيمان الصحيح، أو من انهيار القيم العليا أمام المطامع، أو الشهوات الدنيئة، وأبلغ وصف للزعماء من هؤلاء هو قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥].

أو قول النبي ﷺ: «وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس»[١].

وإن واحدًا من هؤلاء ليكفي لتدمير أمة، وخراب دولة، وإفساد شعوب وأقاليم، وإشعال حروب وأحقاد، وقد حذر عمرو بن العاص ﷺ بحكمته الشهيرة من هذا النوع البشع: «لموت ألف من العلية أهون من ارتفاع واحد من السِّفْلة»!!

وشر هؤلاء هو الذي يضفي على نفسه ستارًا دينيًا كاذبًا، إمعانًا في خداع الناس، واستهتارًا بالله، والدين، والقرآن، والله من ورائهم محيط.

ولذلك جاء في الصحيح ما خلاصته: (**إن أول الناس يقضي عليه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد...، ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن....، ورجل أنفق نفقات عظيمة، ولكنهم جميعًا كانوا يراءون الناس، فأمر الله بهم فسُحبوا على وجوههم إلى النار**)[٢].

ولعل مفتاح ذلك كله ما جاء في الحديث الآخر:

«**ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار**» قالوا يا رسول الله: كانوا مصلين؟! قال: «**نعم كانوا يصلون، ويصومون، ويأخذون هنة من الليل، فإذا عُرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه**»[٣].

---

(١) صحيح مسلم من حديث حذيفة مرفوعًا (في الإمارة، باب: الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن).

(٢) الحديث طويل وهذا خلاصته، رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما، ورواه أبو منصور الديلمي من حديث أنس ﷺ، وسند الروايتين ضعيف، يتقوى بالآخر والله أعلم.

والمراد: من الدنيا الحرام، وهذه آفة الآفات التي تدخل على القلوب المظلمة، فتثب على الحرام وثبًا، شأن من لا يرجو معادًا، ولا يخشى عقابًا!!

من أجل ذلك أكد الإسلام تأكيدًا جازمًا على مراقبة النفس، ومراجعتها ومحاسبتها، وتعهد الإيمان بالتجديد والترشيد، ومتابعة القلب بالتطهير والتنوير، حتى جعله النبي ﷺ مفتاح السلوك والانقياد، وأساس الصلاح والإصلاح في قوله الشريف: «... **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[1].

وهذا يمتد من الفرد إلى الجماعة، ومن الجماعة إلى الأمة، ومنها إلى الدولة والحكومة، وفي كل شئون الحياة، لأنها منظومة جامعة، تقوم على الترابط، والتكامل، والشمول!!

المحن المعاصرة:

ما قامت جماعة تدعو إلى تطبيق الإسلام بشموله إلا جرت عليها سنة الله في الابتلاء والتمحيص، تربية، وتصفية، وتمييزا، ورفعا للدرجات، لا عقوبة، ولا تثبيطًا للهمم، وقد وقع ذلك للرسل عليهم السلام وأصحابهم رضي الله عنهم، لأنهم جماعات (تغيير) لا ترقيع، وتستهدف أمرًا عظيمًا هو إقامة الإسلام بنظامه الشامل للفرد، والمجتمع، والدولة والحكومة، وهذا ما يثير عليهم الرؤساء، والزعماء، وأصحاب المصالح الفردية والطبقية، التي استأثروا بها من دون الناس، لأن كل قيمة إسلامية: (كالتوحيد، والعدل، والإنصاف) ستنسخ موروثًا من موروثات الجاهلية التي ابتدعوها، وتفاضلوا بها على عباد الله ﷻ، ولذلك كان الصدام يأتي من (الرؤوس) الغاضبة من أجل مصالحها كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(١) رواه الجماعة من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

ولذلك لم يلقوا بالاً لكل ما جاء به الرسل من الخوارق، والبراهين، والآيات.. كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وفي العصر الحديث تفاقم البلاء بكثرة الأعداء، وضراوة الألداء!!

إن (أكابر المجرمين) الآن لم يعودوا أفرادًا أو زعماء بذواتهم، وإنما صاروا دولا كبرى، بالغة الطغيان والعدوان، فائقة الحضارة والقوة، والعتاد والعناد!!

وفي الداخل ربوا (طبقات بديلة) وكلاء عن شياطين الخارج، وامتدادًا لهم ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

لذلك كان ثقل المحن على الجماعات المعاصرة عاتيًا رهيبًا، لأن الفارق بين الطرفين لا يزال واسعًا مخيفًا!!

بعض الناس حلّ هذه المعادلة الشرسة بأن لاذ بالجحور، وتعلل بالمقادير أو المعاذير!!

وبعضهم قصَّر خطوطه، واكتفى بالعمل للإسلام (المجزّأ) اعتقادًا، أو ابتداعًا، أو تربصًا إلى حين!!

وآخرون تعجلوا الطريق، وقفزوا فوق المراحل، فلما اصطدموا بالصخور الصماء، عادوا إلى (فتنة تدع الحليم حيران) [1]!!

فأين الطريق؟

إنه النموذج الذي بُعث به محمد ﷺ، وسار عليه حتى جاء نصر الله والفتح،

---

(١) جزء من حديث قدسي رواه الترمذي والدارمي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ولا يزال محفوظًا بتفاصيله في الكتاب العزيز، والسنة المطهرة:

إنه التربية العميقة، والتزكية الأمينة، والإيمان الراسخ!

إنه الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإلى الإسلام الشامل!

إنه الصبر الجميل الطويل حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده.

وكلما طال الطريق، أو فترت الهمم، أو تقاعست العزائم، فلابد من (تجديد الإيمان)، آنا بعد آن، والملاحظة الدائمة لارتباطنا بالثوابت، لا نتزحزح عنها مهما كانت التضحيات، وسواء رضى الناس فصاروا حولنا ألوفًا بعد ألوف، أو انفضوا عنا ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وكفى بربك هاديًا ونصيراً:

ولكن يبقى السؤال قائمًا ملحًا: كيف نكافئ الفجوة الهائلة بيننا وبين الذين يصدون عن سبيل الله، من القوى الطاغية في الداخل والخارج؟!

والجواب المتفرد: (بالله الواحد القهار)!

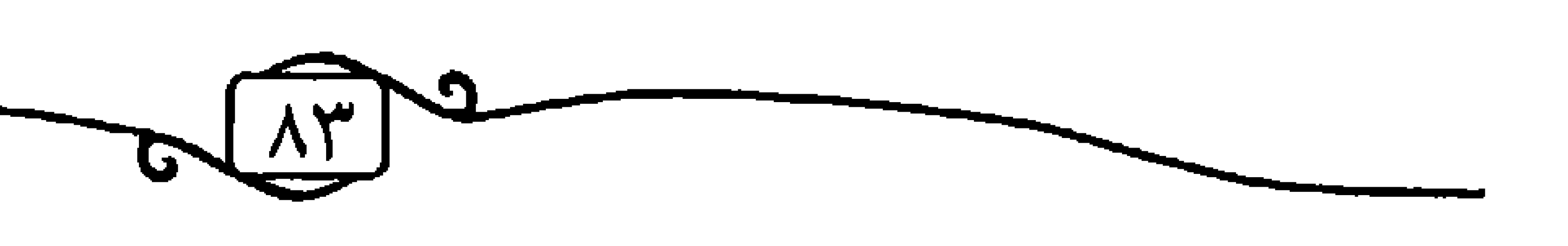
إيمانًا به، وثقة فيه، وتفويضًا إليه، وتوكلا عليه ﷻ!

دعاء وتسبيحًا وتمجيدًا له سبحانه وتعالى، ولجوءًا له وحده في الشدائد والكربات!

وهذا هو لب التربية الوثيقة العميقة في هذه المراحل الصعبة!!

وهذه هي عدة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام طوال التاريخ البشري!

ولذلك استفاض القرآن الكريم في تقرير هذا المبدأ، باعتباره أصْل الأصول في الدين، والدليل العملي القطعي على أنه رب الكون ومليكه ومدبره بلا شريك ولا منازع، والآية الظاهرة المتكررة على صدق الرسل، وصحة الدين، وسلامة اختيار



المؤمنين، وفساد مواقف الكافرين، مع ما يملكون من كل الأسباب المادية للتفوق والغلبة!!

يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وهذه قاعدة كلية عامة في الأنبياء، وأعدائهم من المجرمين، وفي عموم الكفاية الربانية في كل هداية ونصرة، مهما كانت العداوة.

وأما أكابر المجرمين الدهاة الذين يتقنون الكيد والأذى، فإن كيدهم يرتد إلى صدورهم قبل غيرهم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

ومثال ذلك المحدد: العمالقة الجبارون: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

ثم في السيرة النبوية المتواترة ما يكفي ويشفي.

ماذا كان يملك النبي محمد ﷺ من المال، أو الرجال، أو مصادر القوة؟!

وكم كان الكفار المشركون يملكون في الجزيرة العربية، ومن ورائهم الدول الكبرى كالفرس والروم؟!

لقد علَّم الله تعالى محمدًا وأصحابه أن يقولوا في صلاتهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلما أتقنوا العبودية لربهم، أكمل لهم المعونة، ونصرهم نصرًا مبينًا في حياته ﷺ، وبعد مماته، وبارك في جهاده ﷺ وفي جهادهم، وأجرى مقاديره الغالبة من خلال أخذهم بالأسباب، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

غلبتك بالله يا أبا سفيان:

لقد فتح الله مكة لرسوله وللمؤمنين بعد ثماني سنوات فقط من الهجرة.

وذهب النبي ﷺ يطوف بالكعبة غداة الفتح المبين، وقد نكست الأصنام، واندحرت الجاهلية، وفر بقايا سدنتها هاربين هائمين.

ووقف أبو سفيان بن حرب زعيم الكفر السابق، الذي أسلم على عجل، يرقب المشهد، ويصرخ في أعماقه حديث نفسي صامت لا يجرؤ على إعلانه، يقول لنفسه: بم غلبني هذا الرجل؟! وانطلقت خواطره أو هواجسه كالبرق الخاطف في المقارنات والموازنات المكتومة، وفجأة ترك النبي ﷺ الطواف واتجه إليه، وضرب على صدره وقال: (**غلبتك بالله يا أبا سفيان!**).

وهذه خلاصة الخلاصات من قصص الأنبياء عليهم السلام، ومن ملاحم السيرة النبوية التي قادها محمد ﷺ، ومن معارك المؤمنين والمؤمنات طوال التاريخ إذا أحسنوا (العبودية)، وأتقنوا (الإيمان).

﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧، ٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

مشاهد ومعاينات:

* في سنة (١٣٧٤هـ = ١٩٥٤م) ابتلى المؤمنون والمؤمنات – في بلادنا – بمحنة بالغة عقب محنتهم الأولى التي سبقت هذا بست سنوات، وفيهما جرت عليهم سنة الله تعالى في الابتلاء والتمحيص، واصطلى المؤمنون والمؤمنات بنيران التعذيب، والتقتيل، والمحاكمات، والسجون، وثبت الله تعالى من شاء من عباده، فازدادوا إيمانًا

مع إيمانهم، وتحرر الهدف جليًّا، وأصبح الإسلام في النفوس أغلى من النفس، والمال، والولد، بعد أن دفعوا الثمن عمليا في سبيل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[آل عمران: ١٤٣].

* وفي سنة (١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م) عاد الفراعنة الأغرار إلى جريمتهم الهائلة، فأججوا نيران المحنة مرة أخرى، اعتقالاً، وجلدًا، وتعذيبًا، ومحاكمات عسكرية هزلية، وقتلاً بالسياط، وإعدامًا على المشانق، وإذلالاً منظمًا في المعتقلات، والسجون، خاصة في أتون السجن الحربي!!

ولا تكفي مئات الصفحات لبيان هذا، فقد كان الفراعنة الأغرار في عنفوان طغيانهم، وقد خدعوا الناس جميعًا، وسخروا ضدنا كل شيء من الإذاعات إلى الصحافة.. إلى الأقلام الفاسدة المرتشية، إلى الشيوخ الكذبة الذين خطبوا على المنابر بالزور، أو أفتوا بالباطل، إلى الشيوعيين الملحدين، وعامة الذين كفروا بالله والمرسلين... إلى المرتزقة من الجيش والشرطة والمباحث... ناهيك عن رجال النيابة والقانون؟!!

وبالاختصار كنا كما قال الله ﷻ:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

الله أعلى وأجل:

وكنا في أشد الرعب والخوف على أنفسنا وعلى إخواننا، خشية التذبذب والفتنة تحت وطأة التعذيب الهمجي الوحشي!!

كان الطواغيت ومَنْ حولهم يملكون كل شيء، وكنا نحن مجردين من كل حول

وطول، حتى ملابسنا ممزقة، أو مليئة بالدماء والقيح والصديد!!

ولكن الله ﷻ ﴿هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وهو الشهيد القريب، والرقيب الذي لا يغيب، وقد تجلى بفضله ورحمته على هؤلاء المعذبين، فثبت القلوب، وأنزل السكينة على النفوس، وقوّى العزائم والهمم، وعلق الأرواح بالعرش والفردوس الأعلى، وأجرى حِكَم القرآن على الألسنة في هذا المعترك الضنك، فكانت بردًا وسلامًا على الجراح الملتهبة، والأبدان الممزقة..!!

- يقول فتى لصاحبه، وكلاهما ممزق الإهاب والثياب: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

- ويهمس آخر لأخ بجواره وهو لا يعرفه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣].

وينظر ثالث إلى جراح أخيه والدود يتناثر منها: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠].

- ويقول شيخ في صوت خفيض مخافة أن يسمعه الجلادون المجرمون: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

- وَهَمهَمَ مَن سمعوا الآية الكريمة بالدعاء والرجاء..، وسمعت من ورائي صوتًا حبيبًا هادئًا يقول الحديث الشريف: «**أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر....**» [١].

---

(١) وبقية الحديث: (فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن) رواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث عمرو بن عبسة ﷺ يرفعه.

ومثله في المعنى (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء) رواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا.

• لقد كان صوت أخ كريم، قضى من السجن عشر سنوات، ثم أعيد للسجن وكتب الله له الشهادة على أعواد المشانق بعد ذلك بشهور قليلة.. كان رحمه الله صاحب ليل وتهجد، لا يتركه في أصعب الظروف، فأراد أن يذكر إخوانه بقيام الليل، رضي الله عنه، وألحقنا به في الصالحين!!

كانت هذه (لقطات) متناثرة، في أوقات متعددة، ومن بقايا ما اختزنته الذاكرة، لأن الواقع - يومئذ - كان مريرًا مخيفًا، لا يسمح بترف (جلسة) يتبادل فيها الإخوان حوارًا مثل هذا!!

سنتان فى السجن الحربى:

تنافست خلالها جميع المؤسسات والأجهزة العسكرية والمدنية في إظهار الولاء للصنم الأكبر، بتعذيبنا، وجلدنا، واستباحة كل شيء من الأموال والدماء، والحرمات، واكتظت السجون بالمؤمنين والمؤمنات، وانطلقت الشرطة العسكرية، والمباحث في سفك الدماء، وقتل الرجال، ونصب سوق التعذيب والتنكيل، قبل المحاكمات العسكرية الهزلية وبعدها على سواء، وسمعنا أشنع عبارات سب (الله) الرب الأعلى، وسب الإسلام والدين، ومحاضرات المرتزقة من الشيوخ وغيرهم، وإغراءات الفتنة العارمة بالمصالح تارة أو (بالكرباج) تارات، أو بأحكام (جنرالات الجيش المصري) البالغة القسوة، والتي تصاعدت من الحكم بالسجن (١٠) سنوات، إلى الحكم بالمؤبد (٢٥) سنة، إلى (الإعدام) كما فعلوا مع (الشهداء) الكرام: سيد قطب وصاحبيه: يوسف هواش، وعبد الفتاح إسماعيل، وقد قتل تحت سياط التعذيب عشرات من كرام المؤمنين: مثل بدر الدين شلبي، ومحمود صقر، اللذين رأيتهما بعيني يعذبان، رضي الله عنهم أجمعين!!

لقد كان من أعظم آيات الله ﷻ أن تبقى (كتلة) الإخوان الأساسية ثابتة، مؤمنة

محتسبة، راضية بقدر الله العلي العظيم، يقومون بالليل رغم جراحهم البالغة، ويصومون النهار رغم محاولات الإذلال بالتجويع (وبالطوابير) المنهكة، ويقبلون بشغف واضح على القرآن الكريم: حفظًا وتلاوة، وتدبرا وتفسيرا، في الزنازين الضيقة، أو خلال (طوابير) التعذيب المهلكة، بل خلال المحاكمات العسكرية الهزلية، وشر البلية ما يضحك؟!! وقديما قال المتنبي:

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا!!

وغني عن البيان ما حدث أثناء هذه (الملحمة) ذات المظالم الفاحشة، فذلك معلوم من الدين ومن التاريخ بالضرورة:

أما الدين: فتلك سنة الله التي لا تتخلف: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وأما التاريخ: فقد هُزم الجيش المصري أمام القردة والخنازير من بني إسرائيل، هزيمة ساحقة، لم تحدث في تاريخنا قط، سواء في حجمها وأهوالها، أو تأثيرها الذي سيمتد إلى عشرات السنين إلّا أن يشاء الله ﷻ!!

لقد بكينا طويلاً على (نكبة) بلادنا، وأمتنا، وجيشنا العظيم، الذي أفسدوه عمدًا، وجرعوه مرارة الهزيمة خيانة وغدرًا، وباعوا دماء أبنائه في سوق النخاسة الدولية، وفي خسة النجاسة الفرعونية جهرًا، بلا حساب ولا عقاب للمجرمين إلى يومنا هذا، حتى أفلتوا بجرائمهم الثقيلة التي اقترفوها في حق البلاد والعباد!!

ثماني سنوات أخرى في سجون الفراعنة:

يذكر القرآن الكريم أن فرعون حين رأى الكارثة تحل بجيشه، وعاين الغرق صاح يعلن إيمانه وإسلامه، وإن كان بعد فوات الأوان:

﴿...حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

أما الفراعنة الجدد فكانوا أضل سبيلاً، وأسوأ قيلا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾

[المؤمنون: ٧٦].

وآية ذلك أنهم تمادوا في خطاياهم، حين نقلونا من (السجن الحربي) إلى سجن (ليمان طرة) جنوب القاهرة، عقب الهزيمة الماحقة!!

وقد ظننا أن ذلك نوع من التخفيف والتعقل، لأن السجون المدنية- عادة- أخف وطأة من السجون الحربية، واستخدام السجن الحربي ابتداء للمدنيين هو جريمة في حد ذاتها، وقد ابتدعها فراعنة مصر المعاصرين ابتداعًا لقهر الدعاة الإسلاميين!!

ولكن مما ظنناه تخفيفا كان تنويعا في التعذيب، وتجديدًا في وسائل القهر والإذلال، بصورة تقطع بأن الطغاة عميان لا يبصرون طريقًا، وصدق الله ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

لقد فاتهم الأمر البدهي في أن المظالم تجلب الهزائم، وأن الظلم يدمر الأخضر واليابس، وأن الجيش كله قد ضاع في جولة فاجرة، ولم يكن هذا حديث سماع، وإنما هو واقع عاينوه وعاشوه!!

(عنبر التأديب) الرهيب:

لقد نقلونا بليل، وقذفوا بنا في الظلام الدامس إلى ما يسمى في السجن: «عنبر التأديب»!!

وهو أصعب وأتعب مكان في (الليمان)، لأنه معدّ خصّيصًا لعتاة المجرمين، الذين يرتكبون الجنايات الكبرى في داخل السجن ذاته، فهو مكان لتأديب

المتمردين من المسجونين، ولذلك فالزنازين فيه ضيقة جدًا ومظلمة، وليس بها أي منفذ للتهوية إطلاقًا، بل ليس بها أي فتحة، إلا دائرة صغيرة في الباب الحديدي الثقيل، وهي تكفي فقط لينظر منها السّجان بعينه من الخارج ليراقب من بداخلها، وكنا في قلب فصل الصيف الحار، والملابس التي أعطيت لنا تمثل غاية المهانة، والحقارة، وممنوع استعمال ملابسنا الخاصة ولو الداخلية، وقد كدسونا نحو سبعة أو ثمانية في كل زنزانة، وهي لا تتسع لأكثر من ثلاثة أفراد، ثم تغلق علينا هذه الأبواب ٢٣ ساعة في اليوم والليلة، ونحن معزولون عن الحياة والأحياء جميعًا!!

لقد كانت بالاختصار (محنة) جديدة، نكاد نصاب فيها بالعجز والتلف لأبصارنا وأعضائنا جميعًا!!

هل نقارن بينه وبين السجن الحربي على بشاعته؟!

هل رأى يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وهو في سجن الفراعنة الأقدمين مثل هذا؟! والذي قال فيه عند خروجه منه: «هذا مقبرة الأحياء، وشماتة الأعداء، ومختبر الأصدقاء» كما يروي المفسرون؟!

وهل يفعل هذا بشر سَويّ من خلق الله؟

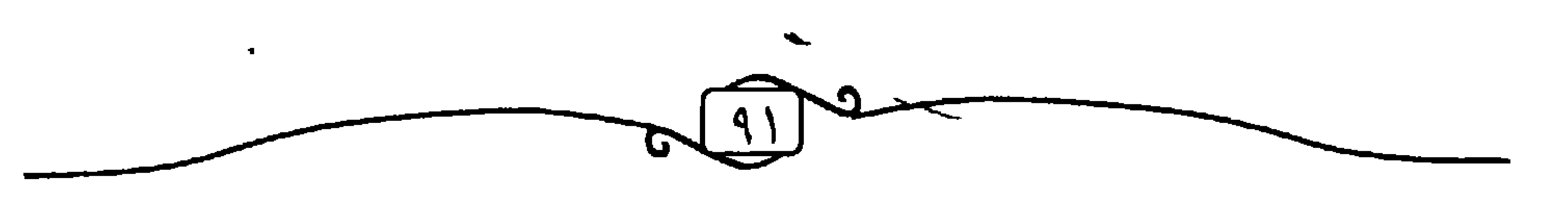
غاية القول أن ما رأيناه في هذه المدة، بعد الحربي، هو مثل مجسم للطغيان البشري، حين يرتد بالإنسان (إلى أسفل سافلين) كما قال ربنا وهو العليم الخبير!!

يحار الإنسان في تفسير كثير من الأشياء أحيانًا:

كيف تنحط الأمم؟ وتسقط القيم؟ ولماذا تفسد الذمم؟ ومتى تنحل الهمم؟

لقد صاح (شرطي) جاهل، ونحن في أول هذا المعترك الضنك يقول:

(ادخلوا (يا يهود) أمة محمد)!!...... يا لها من كلمة موحشة موبقة لا يلقى لها بالاً!



هل يعي هذا الأحمق ما يقول؟! لقد آلمتني هذه الكلمة أكثر مما آلمني السجن الرهيب، لأنها دليل على أن البلاء في أمتنا ثقيل وثقيل!!

وأن الإسلام وحده هو الذي يكشف هذا البلاء الوبيل!!

وهذه مهمتنا بعد أن تخلى عنه الناس، لذلك فالطريق طويل طويل، ويحتاج إلى رجال كبار، يجري إعدادهم هنا بإذن الله وفضله!!

وقد ذكرني هذا بقصيدة طويلة قلتها في ذلك الوقت ومنها:

ذكــرت إذ عنــبر (التأديــب) ندخلــه
ليلا، وليل بوادي النيل قد ضربا

والخــائن الجبــار في مســارحه
قد استخف عقول القوم واستلبا

واســتاقهم فــانكبوا في عبادتــه
مثل النعاج تسام الذبح والعطبا

ذل ومســكنة دون الــورى ضربــت
عــلى يهــود وكنــا أمــة غُلبــا

كنــا وكــانوا إلى أن قادنــا ضرب
مـن (القرود) فهاج الأمر وانقلبا

لــو تعلقــون فهــذا (القــرد) قــاتلكم
فلتقتلـوا مـن رمـى للذلـة العربـا

آية قدرية وعنبر الإيراد:

وقد مر علينا في هذا المكان شهور طويلة قاسية، ثم شاء الله تعالى أن نخرج منه على عجل عاجل، لأنهم أرادوا أن ينقلوا إليه (شمس بدران) وزير الحربية الذي تمت على يديه هزيمة ١٩٦٧، والذي تولى كبر التعذيب في السجن الحربي قبل ذلك،

والمسئول المباشر عن فظاعة هذه الفترة.

والآن هو بعد الهزيمة في السجن مغضوبًا عليه، ويوضع مكاننا في (عنبر التأديب) الكئيب الرهيب، فسبحان مقلب الأحوال ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

شاء الله ﷻ في لحظات أن ينقلونا إلى ما يسمى (عنبر الإيراد) ملاصق للعنبر السابق، ولكنه أقل منه كآبة، وأوسع منه قليلا، وأحسن من سابقه تهوية، غير أنه في نهاية المطاف عنبر كئيب غريب، لا يصلح لقضاء سجن طويل فيه، وهو محروم من الإضاءة تمامًا، وممنوع فيه الكتب والمصاحف، والصحف والمجلات، وغير ذلك من وسائل الاتصال والحياة فضلا عن الزحام الشديد في الزنازين!!

وقد كتب علينا أن نمضي فيه أكثر من سنتين (خلال ١٩٦٨ - ١٩٧٠).

ولكن المهم أن الإخوان في هذه الفترة كانوا - بفضل الله - على غاية الإيمان والالتزام، بالصلاة وقيام الليل والصيام، والذكر، والدعاء، وحفظ القرآن الكريم، والمواظبة على دروس العلم الشرعي في الأوقات الممكنة، والتفقه في الدين، وتبادل الخبرات والمعرفة المحفوظة حيث لا كتب، ثم المواساة والتكافل الإسلامي على أوسع نطاق في داخل السجن، وخارجه بواسطة زيارات الأهالي، على صعوبتها البالغة يومئذ..!!

وفي أواخر (١٩٦٨) طلبت من (مصلحة السجون) تصريحًا بدخول كتب كثيرة لمتابعة كتابة رسالة (الدكتوراه) التي كنت قد سجلتها في جامعة الأزهر قبل دخول السجن.

وقد جاءني التصريح بذلك أنا والأخ المستشار علي جريشة، وكانت هذه أول كتب تصلنا منذ سنوات، ولذلك تقاسمها الجميع لشدة شوقهم إليها، ولم نكتب

شيئًا في الرسالة إلا بعد سنوات، حين كثرت الكتب، وصُرّح بها للجميع.

حادثة صغيرة ذات دلالة عميقة:

وفي هذا العنبر الكئيب حصلت حادثة صغيرة، ولكنها عميقة الدلالة لموضوعنا، فقد كان أحد الضباط في السجن يغلب عليه طيب الأصل، وحسن الخلق، وقد رأى ما نعانيه في هذا العنبر من تضييق ومتاعب وآلام بأمر المباحث العامة، وأن المساجين المحكوم عليهم في أشنع قضايا الإجرام كالقتل وغيره، يتمتعون بميزات وأوضاع محرمة علينا، رغم أن الإخوان جميعًا تقريبا حاصلون على أعلى الشهادات، ولم يرتكبوا أدنى الجنايات.... الخ.

لذلك رتب مع إدارة السجن أن (يرفّه) علينا في مولد النبي ﷺ كما يحدث لسائر المساجين في الليمان، وكان ذلك في أواخر ١٩٦٩م تقريبا وفعلا نجح في إحضار جهاز (تلفاز) كبير إلى عنبرنا الكئيب، لمشاهدة البرامج الدينية في هذه المناسبة الكريمة، وكان بادي الابتهاج لأنه استطاع تحقيق ما يخفف به أوضاعنا البائسة، في عنبر الإيراد المعزول عن الحياة والأحياء، ولكن الإخوان بلا استثناء، انصرفوا بعيدًا عن الجهاز، بل أعطى معظمهم له ظهورهم، وانشغل كل واحد ببرنامجه، من حفظ القرآن الكريم، أو سماع أحاديث نبوية شريفة، أو غير ذلك من الأقوال والأعمال، إلى الدرجة التي أحزنت الضابط المهذب، وعاتبنا على ذلك، وأبان لنا أنه تعب كثيرًا حتى صرحوا له بذلك، فكيف نضيع عليه كل هذه الجهود؟!

ولكن المسألة عندنا كان لها وجه آخر أكبر وأخطر من المجاملة الموقوتة!!

كانت القضية لحظة توهج إيمانية!!

لحظة العزائم، وعلو الهمم، والاستعلاء على شهوات الناس، وملذاتهم التي

يرونها ضرورات، وهي في الحقيقة من توافه الاهتمامات!!

ثم كان في المسألة الأخذ بجانب الحذر، والحيطة، خشية أن يكون ذلك ليس مجرد تعاطف إنساني من ضابط مهذب، وإنما وسيلة استدراج (بالمنح بعد طول المنع)، وهذا من الأساليب الخسيسة التي حاولوا تجربتها معنا في السجن الحربي، واكتشفناها حين استطعنا (بوسيلة ما) أن نقرأ في السجن الحربي كتاب: (حرب المعتقد) المنسوب لرئيس المخابرات العامة- يومئذ- صلاح نصر... ولهذا قصة طويلة ليس هذا أوانها!!

وكل هذه (معان تربوية) في صميم رحلتنا إلى أمة جديدة تقوم بالإسلام العظيم!!

ثم جرت بعد ذلك أحداث، وتحولات، وعجائب وغرائب، ونقلوا عددًا كبيرًا منا إلى سجن (قنا) في أقصى الصعيد حيث بقايا الإخوان الذي صدرت عليهم أحكام المحاكم العسكرية الهزلية سنة ١٩٥٤، ١٩٥٥م، ونقلوا قسمًا آخر إلى سجن القناطر، عدا المعتقلين من غير أحكام في سجن مزرعة طرة، وهم ألوف معتقلون منذ ١٩٦٥م، ولم تفلح الهزيمة الماحقة (١٩٦٧) في تخفيف الأحقاد الطاغية لدى فرعون مصر، حتى كانت سنة (١٩٧٠م) حيث آب العبد صاغرًا إلى الواحد القهار، وذهبت سكرة الغرور ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وشاء الله ﷻ أن تصفّى المعتقلات بعد موته، ويالها من مسئولية باهظة عن كل فرد على حدة، فكيف بهم مجتمعين؟! وكيف بأسرهم وأهلهم كل هذه السنين؟!

ثم كيف بآلاف المعذبين، والمقتولين، والمسجونين؟! وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

سجن المزرعة:

وهو سجن كبير ملحق بليمان طرة، شاء الله تعالى أن ننقل إليه بعد إطلاق سراح المعتقلين، وهو سجن واسع الأرجاء، ومعظم زنازينه تمثل عنابر كبيرة تتسع كل منها لنحو ٢٠ أو ٣٠ فردا، وبه أشجار كثيرة، وملاعب لمزاولة الرياضة، ومسجد تقام فيه الصلوات والجمع.

والسجن في نهاية المطاف هو مصادرة للحرية، ومصادمة للفطرة الإنسانية، خاصة وقد دخلناه ظلمًا وعدوانًا وطغيانًا!!

ولكننا حمدنا الله تعالى على هذه النعمة الجديدة، فقد كنا خلال السنوات الست الماضية، خارج نطاق التعامل الآدمي!!

ولكن ما أعجب وأغرب الإنسان؟!

إذ حصل ما كان متوقعا، وما تجري به سنة الله تعالى في حياة الناس!

أقبل كل منا يصلح من شئونه الخاصة، ما دمرته المحنة العاصفة!!

فالطالب رجع يذاكر دروسه، ويستعد للامتحانات، بعد سنوات من التوقف الإجباري، ويقوم كل منا في تخصصه بالتدريس لهم، ومساعدتهم.

والمريض أقبل يبحث عن علاج لأمراضه التي طرأت عليه من جراء التعذيب... الخ.

وقد أجرى كثيرون عمليات جراحية في هذه الفترة، في القصر العيني، وغيره..!!

والاهتمامات الشخصية بتوافه الأشياء بدأت تستيقظ، بعد أن كانت قد ماتت تحت مطارق الخطر، أو توارت إلى حين...؟!

واتسعت قراءة الصحف والمجلات، وزحفت التحليلات السياسية، والجدليات، والقيل والقال....؟!

وقد لاحظ المراقبون للوضع الجديد أن هذه الاهتمامات الضرورية والمفيدة قد توسعت، أو خرجت عن نطاقها المحمود أحيانًا، ولذلك ابتلعت الوقت الثمين، وأكلت الجهود المبذولة في التربية الدينية، وتدريس العلوم الشرعية، وأدت إلى بروز أشياء غريبة، كإهمال البعض للورد القرآني، والتباطؤ في الأداء الديني، أو تراخي البعض في الأذكار المأثورة، أو تأخر الإيثار الذي هو روح الجماعات، أو توتر الأعصاب في أشياء تافهة، أو قلة التسابق إلى الخيرات في الأعمال التطوعية اللازمة للجميع، أو تسلل الروح العدوانية في الرياضة كالأثرة (الأنانية) في الأفراد، والتعصب وحب الغلبة في الفريق، مع أن أول قاعدة تعلمناها قديمًا من الإخوان في المباريات الرياضية هي:

«**الرياضة لتربية النفوس لا لإحراز الكئوس!!**» .

وقد ظهرت هذه الأشياء متناثرة متفرقة، ولم تبلغ أن تكون (ظواهر) ثابتة، وكان يمكن علاجها (بالتربية) الهادئة المستمرة، خاصة والنفوس في جملتها على حب وولاء لدعوتها ودينها، وأن هذا رد فعل متوقع عقب سنوات القهر والكبت والطغيان!!

لكن لم ينتبه العلماء والحكماء في الجماعة بالقدر الكافي يومئذ، فتفاقمت الأمور ووقع المحذور، وتعلمنا الدرس التربوي المرير: «أن الوقاية خير من العلاج»!!

حادثة خطيرة ودلالة أخطر:

إذ وقعت هنا حادثة صغيرة، ثم تفاقمت حتى صارت ذات دلالة أخطر في معناها وآثارها!!

إنها مثل أختها السابقة تدور حول جهاز (التلفاز).

فقد أحضرت إدارة السجن جهاز (تلفاز) كبير، ووضعوه في غرفة صغيرة عند مدخل العنابر الكبيرة، وتركوها مفتوحة لمن شاء استعمال الجهاز.

* وقد أعرض عنه الإخوان في أول الأمر باختيارهم، زهادة لا تحريمًا!

* ثم دخل بعض أفراد للاستماع للبرامج الدينية، وكان وقتها أول ظهور الشيخ محمد متولي الشعراوي في برنامج (نور على نور)، مما جذب عددًا أكبر، وكان ذلك في أواخر ١٩٧٣م على ما أذكره.

* ثم تخيروا في برامج أخرى، كلها جادة لا بأس بها.. ثم تدحرجوا... إلى البرامج الرياضية... وإلى مباريات كرة القدم، وحينئذ ضاقت الغرفة الصغيرة بالمشاهدين، فنقلوا الجهاز إلى مكان أوسع، وشيئًا فشيئًا صارت مشاهدة المباريات إدمانًا، حتى إنهم كانوا وقتها لا يقومون للصلاة في المسجد إلا بعد إقامة الصلاة... أي (يأتون الصلاة دبارا) وهذا ما حذر منه النبي ﷺ.

* ثم اختصروا المسألة اختصارًا، فصلوا جماعة حول الجهاز، ولم ينتظروا جماعة المسجد الوحيد القريب منهم، حتى يتفرغوا للمشاهدة، ولا تعطلهم صلاة الجماعة الأصلية!!

سبحان الله:

مـــاذا يفعل النسيان بالإنسان؟!

إن معظم هؤلاء هم الرجال الذين أداروا ظهورهم (للتلفاز) منذ سنوات معدودات: (١٩٦٩م)؟!

ثم حين خفت التربية قليلا، وتغير المناخ تحرك المؤشر هابطا لا صاعدًا!!

أين الهمم العليا؟ وأين الأهداف الواضحة؟!

أين مخزون التربية طوال السنوات العجاف، المليئة بالتعذيب والأذى؟!

أين ما سمعوه مرارًا من أن اليهود يخططون لإغراق الشعوب، في «جنون المباريات الرياضية» لتلهو عن أهدافها الكبرى بتوافه الاهتمامات؟! مثل: الصراخ والخلاف، والتعصب للأندية والفرق، وكل هذا ليس رياضة، ولا يغني عن مزاولة الرياضة الصحيحة التي تبني الأجسام والأخلاق!!

إن الحادثة صغيرة في ذاتها، ولكنها ذات دلالة عميقة وخطيرة!!

إنها مثال للتدحرج، والبعد عن الأهداف الكبرى، ثم هي قابلة للتكرار، والانتشار في صور شتى، وبألوان أخرى، ربما أدهى وأمرّ؟!

صحيح أن من فعلوا ذلك ليسوا الكثرة، ولكنها صارت مثل جرس الإنذار الذي يدق في عنف عنيف محذرًا!!

إنهم طلائع أمة، وأمل شعوب، ومستقبل دين، فكيف تذوب المعاني العليا بهذه البساطة، ونحن مازلنا خلف الأسوار، وفي بقية الامتحان المرير؟! فكيف يكون الحال إذا خرجنا للمجتمع الكبير؟!

كيف تغلبت عتامة الطين على هدى الإسلام الحق، وأنوار الدعوة الهادية؟!!

كانت هذه المعاني وأكثر منها تدق في رأسي بغاية العنف، في خطبة الجمعة يومئذ، ولا أستطيع أن أتحدث عنها إلا (رمزًا) وإشارة، في عبارات عامة، لأن في المسجد ناسًا آخرين ليسوا منّا؟!!

حديث نفسي عاصف:

لكن هل تكفي خطبة الجمعة لتصحيح الأمر؟!

ودارت معركة في داخلي إذ اتهمت نفسي بالمبالغة في تضخيم هذا الخطأ العابر،

وتحميله ما لا يحتمل من الآثار والأخطار، وقلت لنفسي: ألم يعاتب ربنا ﷻ أصحاب محمد ﷺ وهم خير منا؟!

وأجابت نفسي: لقد عاتبهم الله تعالى على التقصير عن درجتهم العالية في الخشوع والإخبات، لأنه كان يعدهم لأمر خطير، حين يرثون الأرض، ويقيمون الحق، ويستعلون على الفتن والمباهج والملذات باعتبارهم طلائع الحق، وقدوة الخلق، وميزان الدين، ولو مالوا قيد شعرة، لمال الناس بعدهم ميلاً عظيمًا!!

ولذلك كان ميزانهم دقيقا، رقيقا، حساسا حتى قال أنس ﷺ: «إنكم لتعلمون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات» رواه البخاري...

ثم تقول نفسي:

أما إخوانك فقد وقعوا في خطأ وخطيئة من أجل متعة غاية في التفاهة، ومن أجل مشاهدة صبيانية فارغة، وهذا لا يكون معه العتاب، بل قد يجلب العقاب، والله ﷻ يغفر الذنوب جميعًا.

قلت لنفسي: ألا تحتاج ضغوط السجن القاسية إلى شيء من الترويح؟!

قالت: لا ترويح بحرام أو بمشتبهات، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، وأصحابك وقعوا في الأمرين جميعًا، وإن في الحلال والمباح **متَّسعًا للجميع، ومنهما مزاولة الرياضة بأنواعها**، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتمازحون، ويتبادحون بالبطيخ، فإذا جاء الحق كانوا هم الرجال، كما جاء في الأثر.

ثم ذكرتني نفسي بالأثر الآخر الذي كنت معجبًا به غاية الإعجاب:

«لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين، ولا متماوتين، وكانوا ينشدون الأشعار في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، **فإذا أريد أحد منهم على شيء من**

دينه، دارت حماليق عينيه كأنه مجنون»[1].

ثم قالت نفسي: عجبًا لك تشقق الحديث على غير العادة، وتلتمس المعاذير بلا فائدة، ومقطع الكلام أن تجيبني على سؤال واحد: ماذا تريدون؟!

إن كنتم تريدون إقامة الإسلام مرة أخرى فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فجدّوا، وجددوا الإيمان ﴿اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وإن أردتم أن تكونوا «حزبًا سياسيًا، أو جمعية خيرية، أو هيئة موضعية الأغراض محدودة المقاصد»[2] فكونوا كما شئتم، وخذوا الوسائل والأساليب التي تناسبكم، ريثما تنفذ سنة الله التي لا تتخلف:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

أو يأتي وعده الحق مفصلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد فزعت من نتائج هذه المحاورة النفسية العنيفة، التي ظلت تؤرقني أيامًا، وعندها قررت أن أقوم بما في استطاعتي، لدفع هذا الخطر الداهم، بالتذكرة، والتبصرة والبيان!!

(١) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٢٩١ عن أبي سلمة بن عبد الرحمن.

(٢) انظر في هذا رسالة (بين الأمس واليوم) للإمام البنا رحمه الله تحت عنوان: (وصية): يقول: أيها الإخوان لستم حزبا سياسيًا، ولا جمعية خيرية، ولا هيئة موضعية... إلخ.



متى وأين وكيف ولماذا؟

تركت فورًا عملي الدائب في كتابة رسالتي العلمية (الدكتوراة) – والتي تأخرت عدة سنوات– لأكتب هذه الصفحات في أواخر ١٩٧٣م تقريبًا.

وقد أردتها أن تكون صفحات إيمانية، روحية، قرآنية، نبوية، صحابية، لأن الخلل الزاحف لا يعالج إلا بطب الوحي الإلهي الحكيم، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

إن الفلسفات، والآداب والتاريخ، والحكم والأمثال كل ذلك لا يغني كثيرًا في هذا المقام، إلا إذا سرت بشاشة الإيمان في حنايا النفوس أوّلاً.

والله ﷻ هو وحده العليم بالقلوب، لذلك توجه إلى قلوب المؤمنين بتجديد الإيمان، وخشوع القلب، حين فتروا، وأدركتهم (الملّة)، أو توقفوا عن الصعود في مدارج الكمال!

وقد كتبت هذه الصفحات ترجمة لواقع ووقائع جرت عبر سنين، واستخدمتها لعلاج الخلل الزاحف، وما هو أبعد منه، وصغتها بطريقة (رمزية) أحيانًا تحسبا (للمجهول)، وما أكثره في السجون!!

وقد جاء هذا (المجهول) فجأة، وعلى غير انتظار، بل وعلى غير المعتاد الذي عرفناه، وتوقعناه!!

لقد تعوّدنا على تفتيش أمتعتنا، وكتبنا... بل على مصادرة كثير من أشيائنا، بسبب وبغير أسباب على الإطلاق!!

لكن في هذه المرّة انقضت (المباحث) فجأة، وصادروا كل كتبنا، وأوراقنا، جملة واحدة على غير المعتاد منذ سنوات، خاصة ونحن لدينا تصريح رسمي بهذه الكتب والأوراق، لكتابة رسالة (الدكتوراة).

وذهبت (صفحاتي) التي لم تكتمل صفحتها الأخيرة، برموزها، وأسرارها، وقبل أن تمضي إلى هدفها المقصود!!

وتوجست في نفسي خيفة من أن يطلعوا عليها، لأسباب شتى!!

ولكن الله سلّم بفضله ورحمته.

ويبدو أن (الضابط) ضاق ذرعًا بقراءتها، كما قال لي بعد ذلك، لأنها كانت مكتوبة في (كشكول) كبير، وفيه تلخيصات كثيرة جدًا لكتب قرأتها، أو نصوص نقلتها من الأحاديث النبوية... إلخ.

وكان موضوعنا هذا نفسه مكتوبًا تحت عنوان (رمزي) هكذا:

(ملخصات من كتاب: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، والوابل الصيب لابن القيم، وغيرهما).

وكان هذا سببًا في الإسراع بإعادة كتبي وأوراقي إليّ، بعد شهر واحد تقريبًا لأنهم لم يجدوا فيها شيئًا: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

كنا حينئذ في صيف (١٩٧٤)م، وقد دخلنا في السنة العاشرة من السجن المؤبد، الذي حكم به علينا المهرجون من قضاة العسكر!!

وقد تسارعت الأحداث بطريقة عجيبة، إذ أفرجوا عن بعضنا فجأة، وانتقل بعضنا إلى القصر العيني للعلاج، ورتب إخواننا من خارج السجن إقامة قضية باسمنا لإبطال الأحكام العسكرية الجائرة، التي لا سند لها من دين، ولا خلق، ولا عقل، ولا قانون!!

كان السند الوحيد لها هو خنوع قضاة العسكر كالعبيد للفرعون البائد الأرعن



المستبد، ثم امتهان كل مقومات الحق والعدل، ولذلك دفع الجيش نفسه، والأمة كلها، ثمنا باهظا لهذا العبث الإجرامي!!

ولو استمعوا للقرآن العظيم، وهو يحذرهم من هذا المصير، لنجا الجيش والأمة من هذا المصير الموحش الذي ذاقه فرعون من قبل، ولكنهم رفضوا فذاقوا: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۞ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤- ٥٦].

وشاء الله أن تكون هذه القضية سببا في خروجنا من السجن جميعا، وكنا آخر فوج باق في السجون، حين خرجنا بفضل الله في ١٢ من ربيع الأول ١٣٩٥هـ (٢٤ آذار- مارس- ١٩٧٥م)، ولله عاقبة الأمور!!

وفي خلال هذا العام الأخير غمرت الأحداث المتسارعة (صفحاتي) هذه، ولم تتمكن من أداء عملها إلا على وجه محدود، أو فردي، لكثرة ما فاجأنا من حركة الانتقال، والانشغال، ثم نامت في الأدراج طويلا بعد أن خرجنا إلى المجتمع الصاخب، وضربنا في الأرض ذات الطول والعرض، لتحصيل معاشنا، وخدمة دعوتنا وديننا، وتكاثر الحوادث والأسفار علينا، وما فكرت قط في نشرها، فقد مضى زمانها ومناسبتها، وجدّت أجيال جديدة من الإخوان، خرجوا من بين الإطلال والركام، والهزائم والمظالم، ويحتاجون إلى جهد جهيد للتربية على معايير الإسلام العظيم، بارك الله فيهم، وهيأ لنا ولهم من أمرنا رشدًا.

ثم لماذا الآن...؟!

لأن الزمان قد استدار كهيئته يوم كتبت هذه الصفحات القديمة!!

ودارت الأحداث دورة واسعة النطاق، يلدن العجائب والغرائب، وتذوب فيها قيم أصيلة، وتقفز إلى ساحتنا قيم عجاف، متبرجة بألوان وأصباغ خادعة،

حتى يخيل من سحرها أنها تسعى، بل تضاءلت بجانبها قصة إخواننا: (أصحاب الكرة وصلاة الجماعة!!).

لقد تدحرجت صغار الأمور- في بطء- حتى صارت كبائر!

وشبت فراخ الطير- بلا إعداد صحيح- فصارت جوارح!

وامتلأت الساحة بأجيال حبيبة، ذات فطرة نبيلة، ولكن أين المربون؟! وأين قيم الإسلام في هذا الزحام؟!

لقد اختلط الحابل بالنابل، حتى تشوشت الأصول والثوابت، وتشوهت المعالم، بطول الإلحاح، على تبني الأخطاء، وتلقين المزاعم!!

من نحن؟ وماذا نريد؟ حتى هذه البدهيات أصبحت من العجائب في سوق الغرائب، فمن قائل: نحن حزب سياسي بخلفية إسلامية؟!

أو جماعة مدنية ذات مرجعية دينية؟!، ومنهم من يرنو بعينيه إلى (الخلفية الإسلامية) المطاطة، والتي اتسعت لكل شيء من (العلمانية) إلى التحالف مع (إسرائيل)، في لعبة الحزب التركي المشهورة؟!!

ولأن التربية الإسلامية ضعفت في القلوب، سهل تسرب كل زعم من الثقوب، حتى سمعت أحد دعاتنا يخطب في جمع كبير معللا ثبات الإخوان في المحاكمات والمواقف المعاصرة، بأنه يرجع إلى (عبقرية) الإمام الشهيد رحمه الله ورضي عنه، وهذا زعم أول من يبرأ منه حسن البنا رحمه الله، بل يخالف صريح القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

فلما اتسع الخرق دخلنا في متاهات الخلافات الفقهية، باسم الدعوة ولمصلحتها المزعومة، وصارت القلوب (قابلة لكل صورة) يقول بها قائل بلا دليل، أو بدليل

متهافت لا يثبت، أو بدليل ثابت يُفْتَى به لأمثال الأعرابي الذي قال للنبي ﷺ: (والله لا أزيد على هذا ولا أنقص)، ولا يفتى به لطلائع الدعوة، الذين يحاولون أمرًا عظيمًا، ويريدون- بعون الله- إقامة الإسلام!!

وبهذه التحايلات الفقهية انتخب النواب: الحاكم بأمره، الحاكم بغير ما أنزل الله، فهل انطبق علينا (من أعان ظالمًا سلطه الله عليه)؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!!

وبهذه التحايلات صار شباننا الكرام يهتفون حول المرأة المرشحة، ويعلقون صورها في الشوارع، ويصادمون من أجلها في المجامع، وربما سيقوا إلى السجون والمعتقلات في سبيل هذه البدعة المزرية، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؟!!

فأين هذا من حكم الإسلام، الذي كتبه الشيخ الإمام حسن البنا ﷺ، في رسالة: (المرأة المسلمة) وهي مطبوعة متداولة؟

ثم بمثل هذا وذاك دخلت على مجتمعنا الدعوى أشياء كثيرة غريبة، تبدأ صغيرة ثم تتفاقم... (كالألحان) التي مزجت بالأناشيد الإسلامية أولاً... ثم امتدت إلى الترخص في الأغاني ذات الأنغام،.والأوتار، والموسيقى... إلخ!!

ومن العجيب أن يحتج البعض بإباحة الإمام ابن حزم لها، مع أنه بذلك خالف صريح مذهبه الظاهري، ثم أين الأندلس بعد أمثال هذه الفتاوى القاتلة؟! وهل هذا هو الطريق الصحيح لجماعة مجاهدة لاستعادة الأندلس، ناهيك عن فلسطين الشهيدة المعاصرة؟!!

وبمثل هذا أو ذاك دخل التساهل في الاختلاط، وغض الأبصار، وملابس المرأة المسلمة، ومصافحتها أحيانًا...!!!

وكان الحصاد المر لهذا كله ما نرى، ونسمع، ونعايش من (الغرائب) في مجتمعنا الدعوي، مما يجب على أهل العلم بيان أحكامه واستنكار ظهوره، والنهي الجازم عن شيوعه، بل هذه مهمة كل أخ مسلم، أو أخت مسلمة، بموجب عقد الإيمان، ومحبة الإسلام ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۞ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

ولنحذر من التعليلات الكثيرة، والجدل طويل، ونعوذ بالله من هوى متبع، أو إعجاب كل ذي رأي برأيه!!

لأنه بهذا يقع التحول البطيء إلى العلل القاتلة!

وتضيع الحقائق في زحام الحوادث، أو تتوه المبادئ في جلبة الوسائل!!

ويالله للمسلمين؟!

فإن هذا تدمير للبناء من الأساس، وانهيار للهدف الأسمى، حتى لو أحرزنا بعض المكاسب والانتصارات الشكلية، وما الفائدة أن نربح العالم كله ونخسر أنفسنا؟!

إن إقامة الإسلام في الأرض مرة أخرى أمر بالغ الخطر والأثر.

وسنة الله تعالى أن يكون له رجال كرام كبار لإقامته وإدامته.

﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

والطريق أمامنا لا يزال طويلا، وموحشًا، مخيفًا!!

ومازلنا في سجن كبير غليظ:

فالشريعة الإلهية – ابتداء – معطلة!

ومعالم الدين والحق والعدل مهدرة!

والحريات مصادرة، والحرمات مهددة، والاستبداد والفساد والإفساد تذل العباد والبلاد، ثم أعداء الإسلام يعربدون ويتطاولون بلا حدود!!

ولابد من أمة مؤمنة جديدة ترث –بإذن الله وحده– هذا الحطام المستباح!!

(هداة ودعاة)!

هداة يطوعون كل شيء لأمر الله!

ودعاة زادهم التقوى، ونورهم الإيمان!

ومن أجل ذلك ننشر – الآن– هذه الصفحات رجاء (تجديد الإيمان)!!

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ...﴾[الحديد:١٦].

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وارزقنا الإخلاص في القول والعمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو الله

عبد الستار فتح الله سعيد

القاهرة في ٢٩ من ربيع الآخر ١٤٢٩هـ

٥/٥/ ٢٠٠٨م.

***

فهرس الموضوعات

* * *

تم بحمد الله وفضله

سطور عن المؤلف

١- ولد عام ١٣٥٠هـ (نوفمبر ١٩٣١م) ببلدة كفر مساعد بمحافظة البحيرة.
٢- بعد حفظ القرآن الكريم التحق بمعهد الإسكندرية الديني عام ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥م).
٣- تخرج من كلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٨م).
٤- حصل على تخصص التدريس من كلية اللغة العربية ١٣٧٨هـ.
٥- واصل الدراسات العليا في كلية أصول الدين (قسم الكتاب والسنة) إلى أن حصل على العالمية من درجة أستاذ: (الدكتوراه) عام ١٣٩٥هـ.
٦- عمل مدرسًا بالمعاهد الدينة الأزهرية، ثم أستاذًا بجامعة الإمام محمد الإسلامية بالرياض، وكلية أصول الدين بالقاهرة، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وأشرف وناقش العشرات من رسائل (الماجستير والدكتوراه).
٧- له بفضل الله نشاط دعوى بالمحاضرات، والندوات والخطابة، والدروس الدينية، والأحاديث في المساجد، والجامعات والإذاعات والتلفاز في عديد من البلاد الإسلامية.
٨- له العديد من المؤلفات، والبحوث، والمقالات مثل:
أ- المنهاج القرآني في التشريع. ب- المدخل إلى التفسير الموضوعي.
ج- معركة الوجود بين القرآن والتلمود. د- العلم والعلماء في ظل الإسلام.
٩- شارك في العديد من المؤتمرات الإسلامية في البلاد الإسلامية، وفي خارجها كمؤتمرات المراكز الإسلامية، والمؤسسات الطلابية في إنجلترا، وأمريكا وألمانيا.
١٠- عضو (المجمع الفقهي) بمكة المكرمة، والمتفرع من الهيئة الإسلامية العالمية (رابطة العالم الإسلامي).

كتب للمؤلف

١- المنهاج القرآني في التشريع (رسالة دكتوراه).
٢- معركة الوجود بين القرآن والتلمود.
٣- المعاملات في الإسلام.
٤- نظرات في الاستدلال القرآني.
٥- الإسلام والمسلمون في مواجهة الحملات الإعلامية.
٦- في الفقه الإسلامي المعاصر (رسالتان).
٧- إبطال مزاعم: (الهيروغليفية تفسر القرآن).
٨- أباطيل القراءة الجديدة للقرآن والنصوص الدينية.
٩- محاضرات في التفسير الموضوعي (٢٠ محاضرة).
١٠- المدخل إلى التفسير الموضوعي.
١١- الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام.
١٢- القرآن دستورنا.
١٣- الدولة في ظل الإسلام.
١٤- العلم والعلماء في ظل الإسلام.

هذا الكتاب

صيحة حق ، ونصيحة صدق ، وتذكرة أمينة للمؤمنين والمؤمنات (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) وليواصلوا الطريق الطويل على بصيرة وعزيمة ، يحدوهم وعد الرحمن :
(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)
[العنكبوت: ٦٩] .

××××

وقد كُتب بذوب القلب ، وصدع النفس ، للذين يحملون هموم الدعوة ، ويستشعرون خطورة الأمانة ، وثقل المسئولية والحساب غداً :
(لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)
[الأحزاب: ٢١] .

××××

أما غير هؤلاء فالدعاء لهم موصول ، والخير فيهم مأمول ، وسيدركهم التوفيق - إن شاء الله - إذا تفكروا وتذكروا (فإذا هم مبصرون) ، ليلحقوا بأهل الجد وعلى لسانهم قول الرحمن : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم)
[الحشر: ١٠] .
والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ..

designed by